ومن السماء رأوا أطلال مدينة كارتاخينا دي اندياس القديمة والبطولية كما يراها الله، مهجورة من ساكنيها الذين هربوا خوفاً من الكوليرا، بعد ان قاوموا جميع صنوف الحصار من جانب الانكليز وكل عسف القراصنة خلال ثلاثة قرون. رأوا الاسوار الكاملة، واشجار الشوارع الملتفة، والتحصينات التي قوضتها رهبانيات الثالوث، وقصور المرمر والمذابح الذهبية مع حكامها الاستعماريين المتعفنين بالوباء في دروعهم السابغة.

طاروا فوق بيوت تروخاس دي كاتاكا الاثرية القائمة وسط الماء، والمطلية بألوان مجنونة، والمرفقة بحظائر لتربية عظائيات الأكل، حيث تتدلى نباتات بالسامينا واستر وميليا في الجنائن المائية. كان مئات الاطفال يلقون بانفسهم من النوافذ، ومن سطوح البيوت ومن الزوارق التي يقودونها بمهارة مذهلة ويغوصون كاسماك الشابل لاستخراج حزم الملابس وقناني دواء السعال وطعام الصدقات الذي تلقي به المرأة الجميلة ذات قبعة الريش من حجيرة المنطاد.

طاروا فوق اوقيانوس ظلال مزارع الموز التي كان صمتها يرتفع اليهم كبخار مميت، فتذكرت فيرمينا داثا نفسها وهي في الثالثة من العمر، أو ربما في الرابعة، تتمشى في الاجمة الكئيبة ممسكة بيد امها التي كانت ما تزال حينئذ مجرد طفلة أيضاً وسط نساء اخريات يرتدين الموسلين، مثلها، ويحملن مظلات بيضاء ويضعن قبعات شفافة. قال مهندس المنطاد الذي كان يراقب العالم بمنظار مكبر: «يبدو انهم موتى». وأعطى المنظار للدكتور اوربينو، فرأى هذا الاخير العربات التي تجرها الجواميس بين الشجيرات، وخطوط السكة الحديد، واقنية الري المتجمدة، وحيثما توجه بنظره كان يرى أجساداً بشرية مبعثرة. وقال أحدهم بانه علم ان الكوليرا كانت تفتك بقرى منطقة ثيناغا غراندي. فقال الدكتور اوربينو الذي لم يتوقف عن النظر بالمنظار اثناء كلامه:

- لابد انه صنف خاص جداً من الكوليرا اذن. لان هناك رصاصة رحمة في عنق كل واحد من الموتى.

ثم طاروا بعد ذلك بقليل فوق بحر من الزبد وحطوا دون اي حادث يذكر على شاطىء متقد، كانت ارضه المتشققة والمغطاة بملح البارود محرقة وكأنها نار متأججة. وكانت السلطات تقف هناك دون أية حماية من الشمس سوى المظلات العادية، وكان هناك تلامذة المدارس الابتدائية يلوحون بأعلام صغيرة على ايقاع النشيد الوطني، وملكات الجمال يحملن زهوراً احرقها القيظ ويضعن تيجاناً من الورق المذهب، وسُذج بلدة غايرا المزدهرة، التي كانت في ذلك الحين أحسن قرى الشاطىء الكاريبي حالاً. الشي الوحيد الذي كانت تريده فيرمينا داثا هو رؤية مسقط رأسها ثانية، لتقارن ما تراه مع أقدم ذكرياتها، لكنهم لم يسمحوا لأحد بالتجول خوفاً من فتك الوباء. سلم الدكتور خوفينال اوربينو الرسالة التاريخية، التي فُقدت

فيما بعد ولم يعد يُعرف شيء عنها، وقد شارف جميع أعضاء البعثة على الاختناق في قيظ الخطابات الحماسية. إلى ان حملوهم اخيراً على صهوات البغال حتى مرسى بويبلوبيخو، حيث تلتقي المستنقعات بالبحر، لان المهندس لم يتمكن من جعل المنطاد يطير ثانية. كانت فيرمينا داثا متأكدة من انها قدمرت من هناك مع امها، وهي طفلة، في عربة يجرها زوج من الجاموس. وقد روت ذلك عدة مرات لابيها عندما كبرت، لكنه مات وهو يصر على انه يستحيل عليها ان تتذكر ذلك، وكان يقول لها:

- انني اذكر هذه الرحلة جيداً، وقد كانت هكذا فعلاً، لكنها حدثت قبل مولدك بخمس سنوات على الاقل.

عاد أعضاء بعثة المنطاد بعد ثلاثة أيام إلى ميناء المنشأ، وقد انهكتهم ليلة عاصفة، واستقبلوا استقبال الابطال. وتعرف فلورينتينو اريثا، الضائع بين الحشود طبعاً، على اثار البخار فوق محيا فيرمينا داثا. ومع ذلك، عاد لرؤيتها مساء ذلك اليوم في استعراض الدراجات، الذي اقيم تحت رعاية زوجها أيضاً، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعب. كانت تقود دراجة فريدة تبدو اشبه بجهاز من اجهزة السيرك بعجلتها الامامية العالية، والتي جلست فوقها، بينما كانت العجلة الخلفية صغيرة جداً ولا تكاد تكفي لاسنادها. وكانت ترتدي سروالاً فضفاضاً ذا حواشٍ ملونة أثار استنكار السيدات المسنات، وأفقد الرجال الوقورين صوابهم، لكن أحداً لم يستطع ابداء لامبالاتة بمهارتها.

هذه الصور، وغيرها كثير، كانت صوراً سريعة الزوال لسنوات طويلة، تظهر بغتة لفلورينتينو اريثا حين يحلو ذلك للمصادفة، ثم ما تلبث ان تختفي بالطريقة نفسها تاركة في قلبه نورج لوعة. لكنها كانت تخلف اثراً في حياته، اذ انه لم يتعرف على قسوة الزمن من خلال مظهره هو بالذات بقدر ما تعرف عليه من التبدلات التي يلاحظها على فيرمينا داثا كلما رآها.

دخل في أحد الايام إلى مطعم دون سانتشو، وهو مطعم فاخر من العهد الاستعماري، واحتل ركناً منزوياً، كما هي عادته كلما مضى لتناول وجبة عصر خفيفة كوجبة عصفور. وفجأة رأى فيرمينا داثا في المرآة الضخمة، جالسة إلى الطاولة مع زوجها ورجلين آخرين مع زوجتيهما، بزاوية تتيح له رؤية صورتها المعكوسة في المرآة بكل رونقها. كانت عزلاء، تقود الحديث بظرافة وضحكة تنفجران كانفجار الألعاب النارية، وكان جمالها أشد ألقاً تحت الثريا الضخمة ذات القطع الكريستالية: لقد عادت «أليس» لاختراق المرآة.

تأملها فلورينتينو اريثا ماشاء له التأمل بأنفاس مبهورة، رآها تأكل، ورآها تتذوق قليلاً من النبيذ، ورآها تمازح دون سانتشو، الرابع في سلالته، وعاش معها لحظة من حياتها وهو على طاولته المنعزلة، وتمشى لاكثر من ساعة في ارضها الحرام دون ان يكون مرئياً. ثم تناول اربعة

فناجين اخرى من القهوة ليبقى وقتاً أطول، إلى ان رآها تخرج مختلطة بالمجموعة التي معها. لقد مروا قريباً جداً منه، لدرجة انه تمكن من تمييز رائحتها وسط وابل العطور الاخرى المنبعثة ممن هم معها.

ومنذ تلك الليلة، وعلى امتداد سنة تقريباً، قام بمحاصرة صاحب المحل حصاراً عنيداً، عارضاً عليه كل ما يشاء، من مال أو خدمات، أو تلبية اكثر ما اشتهاه في حياته، مقابل ان يبيعه المرآة. ولم يكن الأمر سهلاً فالشيخ دون سانتشو كان يؤمن بالخرافة القائلة ان ذلك الاطار الثمين الذي صنعه نجار ابنوس من فينا هو توأم اطار آخر كانت تملكه ماري انطوانيت، وقد اختفى دون ان يبقى له اثر: تحفتان فريدتان. وحين وافق اخيراً، علق فلورينتينو اريثا المرآة في صالة بيته، ليس لجمال الاطار ودقة صنعته، وانما لاجل القسم الداخلي الذي احتلته الصورة المحبوبة لساعتين.

وكثيراً ما كان يري فرمينا داثا، ممسكة بذراع زوجها، في انسجام تام، متحركين كليهما في جو خاص بهما، بانسياب مذهل لا يتشوش إلا حين يصافحاه. وفعلاً كان الدكتور خوفينال اوربينو يشد على يده بحرارة، بل وكان يسمح لنفسه بان يربت على كتفه في بعض المناسبات. أما هي، فكانت تعامله بمقتضى نظام الشكليات الغامض، ولم تبد يوماً ادنى حركة تتيح له ان يشك بانها تتذكره مذ كانت عازبة. كانا يعيشان في عالمين متباعدين، وفيما كان يقوم بكل جهد متاح لتقريب المسافة، فانها لم تكن تقوم بأية خطوة إلا في الاتجاه المعاكس. لقد مضى زمن طويل قبل ان يجرؤ على التفكير بان تلك اللامبالاة ليست سوى درع لاخفاء الخوف. لقد خطر له ذلك فجأة، عند تعميد السفينة النهرية الأولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وكانت تلك أيضاً هي المناسبة الأولى التي مثل فيها فلورينتينو اريثا العم ليون الثاني عشر باعتباره نائباً أول، لرئيس ش. ك. م. ن. وقد اضفت هذه المصادفة على الحفل مهابة خاصة، فلم يتخلف عن الحضور أحد ممن لهم أية قيمة في حياة المدينة.

كان فلورينتينو اريثا مشغولاً بمدعويه في الصالة الرئيسية بالسفينة، التي ما زالت تنبعث منها روائح الدهان الحديث والقار المذاب، عندما انفجرت موجة من التصفيق على الرصيف وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً حماسياً. وكان عليه ان يقهر الارتعاشة القديمة كقدمه تقريباً حين رأى امرأة احلامه الفاتنة ممسكة بذراع زوجها، بنضوجها الرائع، وهي تمر كملكة من عصر آخر وسط حرس الشرف المتزين بزي المراسم، تحت وابل من الشرائط الورقية الملونة وأوراق الازهار الطبيعية التي تقذف من النوافذ. وكانا يردان على التصفيق بتحية من يديهما، لكنها

كانت فاتنة حتى لتبدو وكأنها وحيدة وسط الحشد. كان كل ما ترتديه له لون ذهبي ملكي، ابتداء من الحذاء ذي الكعب العالي واذيال الثعالب على عنقها، وحتى القبعة التي لها شكل الجرس.

انتظرهما فلورينتينو اريثا على الجسر، إلى جانب السلطات الاقليمية. وسط قصف الموسيقى والألعاب النارية وجؤرات السفينة القوية الثلاثة التي بللت رصيف الميناء بالبخار. صافح خوفينال اوربينو صف المستقبلين بتلك الابتسامة الطبيعية التي هي من خصائصه والتي تجعل كل واحد يظن انه يصافحه بحرارة خاصة. صافح أولاً قبطان السفينة ببدلة المراسم، ثم الاسقف. وبعده الحاكم وزوجته والعمدة وزوجته، ثم قائد المنطقة العسكري، وهو انديزي حديث القدوم إلى المدينة. وبعد السلطات كان يقف فلورينتينو اريثا، مرتدياً بدلة قاتمة، ولا يكاد يظهر بين كل هؤلاء الاعيان. وبعد ان صافحت فيرمينا داثا قائد المنطقة العسكري، بدا انها ترددت أمام يد فلورينتينو اريثا الممدودة فسألها العسكري المتأهب لتقديمه لها ان كانت لا تعرفه، فلم تقل لا ولم تقل نعم، بل مدت يدها إلى فلورينتينو اريثا بابتسامة صالون. كان ذلك قد حدث في مناسبتين سابقتين، وسيحدث في مناسبات اخرى، وقد تمثله فلورينتينو اريثا دوماً كتصرف نابع من طبيعة فيرمينا داثا. ولكنه تساءل في مساء ذلك اليوم، بمقدرته اللامحدودة على الحلم، ان لم تكن هذه اللامبالاة القاسية ليست إلا حيلة لاخفاء عذاب الحب.

وقد اضطرمت اشواقه لمجرد ورود هذه الفكرة بباله. فعاد للطواف حول بيت فيرمينا داثا بنفس القلق الذي كان يشعر به قبل سنوات طويلة اثناء طوافه في حديقة البشارة، لكنه لم يكن ينوي ان يجعلها تراه، وانما كانت نيته الوحيدة ان يراها ليعلم انها ما زالت حية في الدنيا. ولم يعد ممكناً للزمن ان يمضي حينئذ دون اكتراث. كان حي لامانغا يقوم في جزيرة شبه مقفرة، تفصلها عن المدينة التاريخية قناة ماء خضراء، مغطاة باحراج من أشجار الاكاكو التي كانت ملاذاً للعشاق في أيام الآحاد ابان العهد الاستعماري. ومنذ سنوات قليلة هدموا الجسر الحجري القديم الذي بناه الاسبان، واقاموا جسراً جديداً مع مصابيح انارة، لتتمكن الحافلات التي تجرها البغال من المرور. لقد كان على ساكني لامانغا أول الأمر احتمال عذاب ما كان في الحسبان، ألا وهو النوم قريباً من أول محطة لتوليد الكهرباء في المدينة، والتي كان هديرها أشبه بهزة أرضية متواصلة. ولم يستطع حتى الدكتور خوفينال اوربينو بكل نفوذه جعلهم ينقلون المحطة إلى حيث لا تزعج احداً، إلى ان توسطت لصالحه العناية الالهية التي تحالفه دوماً. ففي احدى الليالي انفجر مرجل محطة التوليد في دوي بخاري هائل، وطار فوق البيوت الجديدة، مجتازاً جزءاً كبيراً من المدينة في الجو وهوى ليحطم الرواق الرئيسي في دير

سان خوليان الهوسبيتالاريو القديم. كان المبنى القديم قد هُجر في اوائل ذلك العام، لكن المزجل تسبب في مقتل أربعة سجناء كانوا قد فروا في أول الليل من السجن المحلي واختبأوا في الدير المهجور.

تلك الضاحية الهادئة، ذات التقاليد الغرامية الجميلة، لم تعد مع ذلك بالمكان المناسب للغراميات غير المواتية مذ أصبحت حياً راقياً. كانت متربة في الصيف، وموحلة في الشتاء، ومقفرة طوال العام، فيما البيوت القليلة المختفية وسط حدائق وارفة، ذات مصاطب الموزايك بدلاً من الشرفات القديمة، تبدو وكأنها شيدت لاخماد حماس العشاق المتخفين. وكان ان شاعت في ذلك الحين، لحسن الحظ، عادة التنزه مساء بالعربات القديمة المستأجرة والتي تم تعديلها ليجرها حصان واحد وفقط، وكانت الجولة بالعربة تنتهي عادة في ربوة مشرفة يظهر منها شفق تشرين المفتت أفضل مما يظهر عليه من برج الفنار، وتظهر للعين كذلك أسماك القرش الرشيقة وهي تترصد شاطىء المجمع الاكليريكي، وعابرة المحيطات التي تمر كل خميس، ضخمة وبيضاء، يكاد المرء يلمسها بيده وهي تجتاز قنال الميناء. وقد اعتاد فلورينتينو اريثا استئجار عربة للنزهة بعد يوم العمل الشاق في المكتب، لكنه لم يكن يطوي غطاء العربة كما هي العادة في شهور الحر، وانما كان يبقى مختبئاً في الصمت، غير مرئي في الظل، ووحيداً دائماً، وكان يوجه الحوذي في اتجاهات غير متوقعة حتى لا يثير افكاره السيئة. الحقيقة ان الشيء الوحيد الذي كان يهمه من النزهة هو البيت ذو المرمر الوردي شبه المختفي بين شجيرات الموز وأشجار المانغا الملتفة، والذي كان تقليداً تعيساً لبيوت مزارعي القطن الحالمة في لويزيانا. كان ابنا فيرمينا داثا يرجعان إلى البيت قبل الساعة الخامسة بقليل، وكان فلورينتينو اريثا يراهما عائدين في عربة العائلة، ثم يرى خروج الدكتور خوفينال اوربينو بعد ذلك لزياراته الطبية المعتادة، ولكنه لم يحظ خلال ما يقارب السنة من الطواف، برؤية أي علامة تدل على وجود من كان يتشوق لرؤيتها.

وفي مساء يوم أصر فيه على النزهة المتوحدة رغم هطول أول أمطار حزيران المدمرة، انزلق الحصان في الوحل وسقط على وجهه. وانتبه فلورينتينو اريثا مرتعباً إلى انه كان مقابل بيت فيرمينا داثا تماماً، فتوسل إلى الحوذي صائحاً، دون ان يفكر بان تفجعه قد يشي به:

ـ ليس هنا، ارجوك. في أي مكان إلا هنا.

حاول الحوذي الذي أعماه التسرع، ان يجبر الجواد على النهوض دون ان يفكه، فانكسر محور العربة. خرج فلورينتينو اريثا كيفما استطاع، واحتمل مشاعر الخجل تحت وابل المطر إلى ان عرض عليه متنزهون اخرون حمله معهم الى بيته. واثناء انتظاره، رأته خادمة من خدم آل اوربينو بملابسه المبللة والمغطاة بالوحل حتى الركبتين، فحملت اليه مظلة ليأتي

ويحتمي على مصطبة البيت. لم يكن فلورينتينو اريثا قد حلم بمصادفة كهذه في أقصى هذياناته شططاً، ولكنه كان يفضل الموت في ذلك المساء على السماح لفيرمينا داثا برؤيته وهو على تلك الحالة.

اثناء سكناه في المدينة القديمة، كان الدكتور خوفينال اوربينو يذهب مع افراد عائلته مشياً على الاقدام من بيته إلى الكتدرائية، لحضور قداس الساعة الثامنة، وكان ذلك عملاً دنيوياً اكثر منه دينياً. وفيما بعد، حين انتقلوا إلى البيت الجديد، تابعوا الذهاب إلى الكتدرائية في العربة عدة سنوات، وكانوا يتأخرون أحياناً لتبادل الحديث مع بعض الاصدقاء تحت أشجار النخيل في الحديقة. أما حين شيد معبد المجمع الاكليريكي في لامانغا، مع شاطىء خصوصي ومقبرة خاصة، ما عادوا يذهبون إلى الكتدرائية إلا في بعض المناسبات الجليلة. وانتظر فلورينتينو اريثا، الذي كان يجهل أمر هذه التبدلات، لعدة آحاد على رصيف مقهى الباروكية، مراقباً خروج الناس من القداسات الثلاثة. ثم انه أدرك خطأه وذهب إلى الكنيسة الجديدة، التي كان الذهاب اليها شائعاً حتى سنوات قليلة، وهناك وجد الدكتور خوفينال اوربينو مع ابنيه، في الثامنة بالضبط، خلال أيام الآحاد الاربعة من شهر آب، لكن فيرمينا داثا لم تكن معهم. وفي أحد أيام الآحاد هذه زار المقبرة المجاورة، حيث كان ساكنو حي لامانغا يبنون اضرحتهم الفخمة، وقفز قلبه حين رأى في ظل أشجار الثيبا الضخمة أفخم ضريح بين كل تلك الاضرحة. كان ناجزاً ومزيناً بزخارف زجاجية قوطية، وملائكة من المرمر، وله شواهد مذهبة تحمل اسماء جميع افراد العائلة مكتوبة بحروف مذهبة، وبينهم، بالطبع اسم دونيا فيرمينا داثا دي اوربينو دي لاكايي، ويليها ضريح الزوج، وعلى كلا القبرين كتابة مشتركة: **معاً كذلك في سلام الرب**.

لم تحضر فيرمينا داثا خلال بقية العام أياً من النشاطات التمدنية أو الاجتماعية، حتى ولا احتفالات عيد الميلاد، حيث كانت وزوجها عادة من ضيوف الشرف. لكن الاحساس بغيابها بلغ ذروته في حفل افتتاح موسم الاوبرا. وفي الاستراحة بين الفصلين، فاجأ فلورينتينو اريثا جماعة لا بد انها كانت تتحدث عنها دون ذكر اسمها. كانوا يقولون ان هناك من رآها تصعد عند منتصف احدى ليالي حزيران الفائت إلى عابرة المحيط كونارد، المتجهة إلى بنما، وانها كانت تغطي وجهها بخمار أسود كي لا تظهر آثار المرض المخجل الذي كان يستنفدها. وسأل أحدهم أي مرض رهيب هذا الذي يجرؤ على امرأة متجبرة مثلها. والاجابة التي تلقاها كانت مشبعة بمرارة سوداء:

ـ ان امرأة بارزة كهذه لا يمكن لها ان تصاب إلا بالتدرن.

... فلورينتينو اريثا يعلم ان اثرياء موطنه لا يصابون بأمراض قصيرة. فاما انهم يموتون فجأة، ويكون ذلك في الغالب عشية حفلة كبرى يفسدها الحداد، واما انهم يأخذون بالانطفاء في أمراض بطيئة وفظيعة، تشيع اثناءها اسرار مرضهم بين الجميع. ويكاد الاعتكاف في بناما يكون تكفيراً اجبارياً في حياة جميع الاثرياء، حيث كانوا يخضعون هناك لمشيئة الله في مشفى المؤمنين ببعث المسيح، والذي كان عبارة عن بناء فسيح أبيض ضائع تحت أمطار «دارين» الخرافية، يفقد فيه المرضى حساب القليل المتبقى لهم في الحياة. ولم يكن أي منهم ليعرف حق المعرفة في الحجرات المتوحدة ذات النوافذ المغطاة بستائر سميكة، اذا ما كان مبعث رائحة الفينيك هو الصحة أم الموت. وكان الذين يشفون منهم يعودون محملين بهدايا رائعة يوزعونها بسخاء وهو يبدون الكآبة ليسامحهم المجتمع على طيشهم في البقاء أحياء. وكان بعضهم يعودون وفي بطونهم اثار خياطة بربرية تبدو وكأنها اجريت بخيوط قنب كالتي يستخدمها الاسكافيون، فيرفعون قمصانهم ليعرضوها على زائريهم، ويقارنوها بآثار جراح اخرين ممن ماتوا مختنقين لفرط السعادة، ويعيشون بقية حياتهم وهم يروون ويعيدون رواية الرؤى الملائكية التي رأوها وهم تحت تأثير الكلوروفورم. ولم يكن هناك بالمقابل من يعرف كيف كانت رؤى الذين لم يرجعوا، وخصوصاً اشدهم حزناً: اولئك الذين ماتوا منفيين في جناح المسلولين، بتأثير كآبة المرض اكثر مما هو بتأثير فتك الداء.

وحين فكر بالاختيار، لم يعرف فلورينتينو اريثا ما الذي كان يفضله لفيرمينا داثا. لكنه كان يفضل الوصول الى الحقيقة قبل أي شيء، حتى ولو كانت لا تطاق، ورغم بحثه الدؤوب عنها لم يتوصل اليها. وبدا له غير معقول ألا يجد أحداً قادراً على اعطائه دليلاً يثبت صحة رواية المرض. ففي عالم السفن النهرية، الذي هو عالمه، لم يكن هنالك من سر يمكن اخفاؤه ولا ائتمان يمكن صونه. ومع ذلك، فان احداً لم يسمع بأمر المرأة ذات الخمار الاسود. ولم يكن هناك من يعرف شيئاً عنها، في مدينة كل ما فيها معروف للجميع، حيث تشيع الاخبار عن اشياء كثيرة قبل حدوثها، وخصوصاً اذا كانت من شؤون الاغنياء. كما لم يكن لدى أحد تفسير معين لاختفاء فيرمينا داثا. تابع فلورينتينو اريثا الطواف في لامانغا، مستمعاً دون تقوى إلى المواعظ في كنيسة المدرسة الاكليريكية، ومشاركاً في احتفالات تمدنية ما كانت لتهمه وهو في حالة معنوية اخرى، لكن مرور الوقت لم يكن إلا ليزيد من صحة رواية المرض. كل شيء كان يبدو طبيعياً في بيت آل اوربينو، باستثناء غياب الام.

وفي خضم استقصاءاته الكثيرة وجد أخباراً اخرى لم يكن يعرفها، أو لم يكن يبحث عنها، منها موت لورينثو داثا في القرية الكانتبرية التي ولد فيها. تذكر انه كان يراه لسنوات طويلة في حروب الشطرنج الصاخبة في مقهى الباروكية، بصوته الابح لكثرة ما يتكلم، وكان يصبح

اكثر بدانة وفظاظة كلما هوى في الرمال المتحركة لشيخوخة مقيتة. لكنه ما عاد يبادله الحديث منذ فطور خمر اليانسون المشؤوم في القرن الماضي، مع ان فلورينتينو اريثا كان متأكداً من ان لورينثو داثا ما زال يذكره بحقد شديد كحقده هو عليه، حتى بعد ان حقق لابنته الزواج المحظوظ الذي كان مبرر حياته الوحيد. لكنه كان مصمماً على الوصول إلى معلومات صحيحة عن صحة فيرمينا داثا، فعاد إلى مقهى الباروكية ليحصل عليها من ابيها، في الفترة التي جرت فيها هناك المباراة التاريخية، حين واجه جيرميا دي سانت - امور وحده اثنين واربعين خصماً. وكان ان علم هناك بنبأ موت لورينثو داثا، وقد ابتهج لذلك من كل قلبه، رغم معرفته بان ثمن تلك البهجة قد يكون استمراره في الحياة دون معرفة الحقيقة. واخيراً اعتبر رواية مستشفى اليائسين من الشفاء صحيحة، دون عزاء آخر سوى مثل شعبي سائر: امرأة مريضة . . امرأة خالدة. وفي أيام يأسه، كان يقتنع بفكرة ان خبر موت فيرمينا داثا، في حال وقوعه، سيصله على اي حال دون ان يبحث عنه.

لكن الخبر لن يصله أبداً. ففيرمينا داثا كانت حية ومعافاة، في المزرعة التي تعيش فيها منسية ابنة خالها هيلديبراندا سانتشيث، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس دي ماريا. لقد ذهبت بلا فضيحة، وباتفاق مع زوجها، بعد ان تورطا كلاهما كمراهقين في الازمة الجدية الوحيدة التي عرفاها خلال خمس وعشرين سنة من زواجهما المستقر. لقد فاجأتهما الازمة وهما في راحة النضوج، حين بدأا يشعران انهما بمنأى عن أية مكيدة يحيكها الخصوم مع ابنيهما الكبيرين وحسني التربية، والمستقبل المفتوح امامهما ليتعلما كيف يشيخان دون مرارات. لقد كانت ازمة غير منتظرة لكليهما، ولم يشاءا فضها بالصراخ والدموع والوسطاء. كما هي العادة الطبيعية في الكاريبي. وانما بحكمة الأمم الاوربية، وبما انهما لم يتمكنا من عمل هذا ولا ذاك، فقدانتهيا إلى التخبط في حالة صبيانية لاتنتمي إلى أي مكان. وأخيراً، قررت الذهاب، حتى دون أن تعرف لماذا هي ذاهبة، يقودها الى ذلك الغضب وحده، ولم يكن هو بقادر على اقناعها بالعدول عن رأيها، يمنعه من ذلك شعوره بالذنب.

لقد صعدت فيرمينا داثا فعلاً إلى سفينةٍ عند منتصف الليل وسط تكتم شديد وبوجه مغطى بطرحة الحداد، لكنها لم تصعد إلى عابرة المحيطات كونارد الذاهبة إلى بناما، وانما في سفينة عادية ماضية إلى سان خوان دي لاثييناغا، المدينة التي ولدت وعاشت فيها الى ان بلغت سن الرشد، وكان حنينها اليها يصبح أشد وطأة مع تقدم السنين. ورغم مشيئة الزوج وعادات العصر، فانها لم تأخذ معها من يرافقها سوى ابنة في العماد عمرها خمس عشرة سنة كانت تعيش بين خدم البيت، لكنهم أعلموا بسفرها قباطنة السفن وسلطات الموانىء التي

ستمر فيها. وحين اتخذت قرارها الذي لا عودة فيه، اخبرت ابنيها بانها ذاهبة لتخفف عن نفسها لمدة ثلاثة شهور حيث تعيش الخالة هيلديبراندا، لكنها كانت قد قررت البقاء هناك. كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف جيداً صلابة طبعها، وكان مغموماً لدرجة انه تقبل سفرها بذل وكأنه عقاب من الرب لخطورة آثامه. لكنه لم يضع من نظره انوار السفينة حين كان كلاهما نادماً لضعفه.

ورغم احتفاظها بمراسلة رسمية حول وضع الابنين وبعض شؤون البيت الاخرى، فقد انقضت سنتان تقريباً دون ان يجد أي منهما طريقاً للعودة ليست ملغومة بالكبرياء. ذهب الابنان الى فلوريس دي ماريا لقضاء عطلتهما المدرسية في السنة الثانية، وفعلت فيرمينا داثا المستحيل لتبدو راضية عن حياتها الجديدة. وكان هذا على الأقل هو ما استنتجه خوفينال اوربينو من رسائل ابنه. ثم ان اسقف ريوهاتشا الذي كان يقوم حينئذ بجولة رعوية في تلك الانحاء، ممتطياً تحت مظلة تقيه الشمس متن بغلته الشهيرة البيضاء ذات السرج الموشى بالذهب. وجاء في اثره حجاج من اقاليم نائية، وعازفو اكورديون، وبائعو أطعمة وتمائم متجولون، وامتلأت المزرعة لثلاثة أيام بمشلولين ومرضى يائسين من الشفاء، لم يأتوا في الحقيقة من اجل مواعظ الاسقف المتضلعة ولا مغفرته الكلية، وانما سعياً وراء منة البغلة، التي كان يشاع انها تحقق معجزات دون علم سيدها. كان الاسقف على علاقة وطيدة بآل اوربينو دي لا كايي مذ كان خورياً، وفي ظهيرة أحد الأيام هرب من مهرجانه ليتناول الغداء في عزبة هيلديبراندا. وبعد الغذاء، الذي لم يتكلم خلاله إلا بامور دنيوية، قاد فيرمينا داثا جانباً واراد ان يسمع اعترافها. ولكنها رفضت بلطف، انما بحسم، متذرعة بانه ليس لديها ما تندم عليه. ومع ان غرضها لم يكن كذلك، في وعيها على الأقل، إلا انها فكرت بان ردها سيصل إلى حيث يجب وصوله.

لقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو القول، ليس بلا شيء من المباهاة، بان تينك السنتين المريرتين من حياته لم تكونا نتيجة ذنبه وانما بسبب عادة زوجته المرذولة بشم الملابس التي يخلعها أفراد العائلة، والتي تخلعها هي نفسها، لتعرف من الرائحة ما اذا كان يجب ارسالها للغسيل، حتى وان بدت نظيفة للوهلة الأولى. كانت تفعل ذلك منذ طفولتها، ولم تكن ترى فيه ما يلفت الانتباه، إلى ان انتبه زوجها للأمر في ليلة الزفاف بالذات. كما انتبه إلى انها تدخن ثلاث مرات على الاقل يومياً وهي حابسة نفسها في الحمام، لكن هذا لم يقلقه، لان نساء طبقتها اعتدن حبس انفسهن في مجموعات للتدخين والحديث عن الرجال، بل ولشرب الخمر القوية الرخيصة أيضاً إلى ان ينطرحن ارضاً في سكرة كسكرات البنائين. لكن عادتها في شم كل ما تجده امامها من ملابس، لم تكن تبدو له غير لائقة حسب، وانما ذات خطر على

الصحة أيضاً. فكانت تأخذ الأمر بالمزاح، كما تتناول كل ما لا تريد مناقشته، وتقول ان الله لم يضع لها في وجهها ذلك الانف المدقق لمجرد الزينة. وفي صباح أحد الايام، اثناء خروجها إلى السوق، قلبت الخادمات الحي بحثاً عن الابن ذي السنوات الثلاث الذي لم يجدن له اثراً في أي مكان في البيت. وجاءت هي وسط الذعر، فقامت بجولتين اوثلاث جولات كتلك التي تقوم بها كلاب الاثر البوليسية، ووجدت الابن نائماً في احدى خزائن الملابس، حيث لم يخطر ببال أحد ان يكون قد اختبأ. وعندما سألها زوجها المندهش كيف وجدته رددت قائلة:

ـ من رائحة برازه.

والحقيقة ان حاسة الشم لم تكن تفيدها في غسل الملابس أو في العثور على أطفال ضائعين فقط: لقد كانت حاسة التوجه لديها في جميع مستويات الحياة، وخصوصاً في الحياة الاجتماعية. وقد لاحظ الدكتور خوفينال اوربينو ذلك خلال حياته الزوجية كلها، وخصوصاً في بدايتها، حين كانت دائمة العبوس في جو معادٍ ضدها منذ ثلاثمئة سنة، ومع ذلك فانها كانت تسبح بين شعاب مرجانية حادة دون ان تصطدم بأحد، وبسيطرة على العالم لا يمكن لها إلا ان تكون غريزة خارقة للطبيعة. هذه القدرة الرهيبة، التي قد يكون منشأها حكمة ترجيع لملايين السنين أوقلب صواني، جاءتها بساعة محنتها في يوم أحد مشؤوم قبل الذهاب للقداس، حين كانت فيرميناداثا تشم الملابس التي استخدمها زوجها مساء اليوم السابق بشكل روتيني محض فأحست بقلق ان رجلاً آخر هو الذي أمضى الليل في فراشها.

شمت السترة أولاً ثم الصدرية فيما هي تنزع الساعة ذات السلسلة الذهبية من العروة وتخرج قلم الرصاص ومحفظة الاوراق النقدية وقطع النقود المعدنية القليلة من الجيوب، وكانت تضع كل ذلك على خوان الزينة، ثم شمت القميص المجعد وهي تحل ياقة ربطة العنق وزري المعصم الياقوتيين وزر الياقة الذهبي، ثم شمت البنطال وهي تخرج من جيوبه حمالة المفاتيح ذات الاحد عشر مفتاحاً وقلامة ريشة الكتابة ذات المقبض الصدفي، وشمت اخيراً السروال الداخلي والجوربين والمنديل المطرزة عليه الحروف الأولى من اسمه. ولم يكن هناك من ظل لأدنى شك: ففي كل قطعة من ثيابه كانت تجد رائحة لم تكن فيها خلال سنوات حياتهما المشتركة الطويلة، رائحة يستحيل تحديدها، لانها ليست رائحة زهور ولا رائحة مستحضرات اصطناعية، وانما رائحة خاصة بالطبيعة البشرية. لم تقل شيئاً، كما لم تعد تجد تلك الرائحة كل يوم، لكنها ما عادت تشم ملابس زوجها بفضول لتعرف ما اذا كانت بحاجة للغسيل، وانما بجزع لا يطاق كان يكوي احشاءها.

لم تعرف فيرمينا داثا أين تحدد موقع رائحة الملابس في روتين زوجها. لا يمكن ان يكون ذلك ما بين الدرس الصباحي والغذاء، لانها افترضت انه لايمكن لامرأة سليمة العقل

ممارسة حب متعجل في مثل تلك الساعة، حين يكون على المرأة كنس البيت، وترتيب الاسرة، والتسويق، واعداد الغذاء، وربما تكون قلقة من ان يأتيها أحد الأطفال وقد أعادوه من المدرسة قبل الموعد لاصابته بضربة حجر، فيجدها عارية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي حجرة غير مرتبة، كما يجد، وتلك قاصمة الظهر، ان طبيباً فوقها. وكانت تعلم، من تجربتها، ان الدكتور خوفينال اوربينو لا يمارس الحب إلا ليلاً، بل انه يفضل ان يكون الظلام دامساً، وربما قبيل الفطور احياناً، على زقزقة أول العصافير. أما بعد هذه الساعة، فان نزع الملابس كما كان يقول، ولبسها من جديد أشق على النفس من متعة حُب كحُب الديك. أي ان تلوث الثياب لا يمكن له ان يحدث إلا في احدى زياراته الطبية، أو في وقت تختلس من لياليه في لعب الشطرنج أو في السينما. وقد كان التحقق من هذا الاحتمال الاخير صعباً، لان فيرمينا داثا، على العكس من معظم صديقاتها، كانت تعتز بكبريائها بحيث لا تسمح لنفسها بالتجسس على زوجها، أو بان تطلب إلى أحد عمل ذلك بدلاً منها. ان توقيت زيارة المرضى الذي يبدو الاكثر ملاءمة لاقتراف الخيانة، هو في الوقت ذاته اسهل فترة يمكن رصدها، لان الدكتور خوفينال اوربينو يسجل بالتفصيل وضع كل مريض من زبائنه، بما في ذلك حالة حسابات الاتعاب، منذ ان يزوره أول مرة والى ان يودعه من هذا العالم بصليب اخير وعبارة من اجل راحة روحه.

بعد ثلاثة اسابيع، لم تجد فيرمينا داثا للرائحة اثراً في الملابس لعدة أيام، ثم عادت تجدها فجأة ودون سابق انذار، ثم انها وجدتها فيما بعد أوضح مما كانت عليه سابقاً ولأيام متتالية، رغم ان أحد تلك الايام كان يوم أحد احتفالي لم تفارقه خلاله لحظة واحدة. وفي احدى الامسيات، وجدت نفسها في مكتب زوجها، على خلاف عادتها بل وعلى خلاف رغبتها وكأنها ليست هي التي تقوم بشيء لم تقدم عليه أبداً، وانما امرأة اخرى سواها، محللة بعدسة مكبرة ملاحظات زوجها المتشابكة عن زياراته لمرضاه خلال الشهور الاخيرة. كانت المرة الاولى التي تدخل فيها هذا المكتب المشبع برطوبة الكريوزوت، والمفعم بالكتب المجلدة بجلود حيوانات مجهولة، وصور مدرسية مضطربة، وشهادات شرف، واسطرلابات وخناجر زائفة جمعها خلال سنوات. انه الهيكل السري الذي كان دوماً جزءاً من حياة زوجها الخاصة، وهي لا تدخله لانه لاعلاقة له بالحب اما المرات القليلة التي دخلت هناك فكانت وهي معه، ومن أجل قضايا مستعجلة دوماً. لم تكن تشعر بان لها الحق في الدخول وحدها، وخصوصاً اذا كانت تريد اجراء تحريات لا تبدو لها محترمة. انها ها هي هناك. انها تريد العثور على الحقيقة، وتبحث عنها بقلق لا يمكن مقارنته بخوفها الرهيب من العثور عليها، مدفوعة

بعاصفة متسلطة واكثر عتواً من كبريائها الخُلقي، اكثر عتواً من كرامتها: انه تعذيب ساحر للنفس.

لم تستطع الوصول إلى شيء واضح، لان مرضى زوجها، باستثناء الاصدقاء المشتركين بينهما، كانوا كذلك جزءاً من احتكارات زوجها الخاصة. انهم أناس بلا هوية، لا يُعرفون بوجوههم وانما بآلامهم، لايعرفون بلون أعينهم أو مراوغة قلوبهم وانما بحجم كبدهم، وقلح لسانهم، وكثافة بولهم، وهذيانهم في ليالي الحمى. اناس يؤمنون بزوجها، يؤمنون بانهم يعيشون به بينما هم في الحقيقة يعيشون له، وينتهون إلى اختزالهم في عبارة يكتبها بخطه ويده على طرف التقرير الطبي: اهدأ، فالرب ينتظرك عند الباب.. غادرت فيرمينا داثا المكتب بعد ساعتين لم تصل خلالهما إلى شيء. شاعرة بانها قد خضعت لغواية فاحشة.

وبدأت تكتشف، مدفوعة بأوهامها، التبدلات التي طرأت على زوجها. أصبحت تراه مراوغاً قليل الشهية على المائدة وفي الفراش، ميالاً الى السخط والردود المتهكمة، ولم يعد الرجل الهادىء الذي كانه من قبل اثناء وجوده في البيت، وانما صار اشبه بأسد محبوس. ولأول مرة منذ زواجهما، أخذت تراقب تأخره، وترصد اوقاته بالدقيقة، وتكذب عليه لتحصل منه على الحقائق، ولكنها كانت تشعر بعد ذلك بجرح قاتل لتناقضها. وفي احدى الليالي استيقظت مذعورة لاحساسها بان زوجها يتأملها في العتمة بعينين مشحونتين بالحقد. لقد عانت قشعريرة مماثلة وهي في زهرة شبابها، حين كانت ترى فلورينتينو اريثا يتأملها عند طرف السرير، والفارق الوحيد هو ان مظهره لم يكن حينئذ مظهر حقد وانما حب. ثم انها لم تكن واهمة هذه المرة: كان زوجها مستيقظاً في الثانية بعد منتصف الليل، وقد اعتدل في السرير ليتأملها وهي نائمة، ولكنها حين سألته لماذا يفعل ذلك، انكر الأمر. وأعاد وضع رأسه على الوسادة قائلاً:

ـ لابد انك كنت تحلمين.

بعد هذه الليلة، وبفعل احداث مشابهة وقعت في تلك الفترة التي لم تعد فيرمينا داثا تعلم فيها علم اليقين أين ينتهي الواقع وأين تبدأ الأحلام، توصلت إلى اكتشاف باهر بانها آخذة بالجنون. ثم انتبهت اخيراً إلى ان زوجها لم يتناول القربان الرباني يوم خميس التجسيد، ولا في اي أحد من آحاد الاسابيع الاخيرة، كما انه لم يجد وقتاً للخلوة الروحية في ذلك العام. وعندما سألته عن سبب هذه التبدلات الغريبة في صحته الروحية، تلقت رداً مبهماً. وكان هذا هو المفتاح الحاسم للحل، لانه لم يكن يتخلف عن تناول القربان المقدس في يوم بهذه الاهمية منذ مناولته الأولى وهو في الثامنة من العمر. وهكذا ادركت ان زوجها لم يسقط في الخطيئة المهلكة وحسب، وانما هو مصر على الولوغ فيها، لانه يرفض اللجوء إلى مساعدة

كاهن الاعتراف. لم تتصور يوماً انها قد تعاني الى هذا الحد من شيء يبدو مناقضاً للحب تماماً، ولكنها كانت في خضم هذه المعاناة، ورأت ان الوسيلة الوحيدة لتخليص نفسها هي في دس النار إلى جحر الحيات التي سممت دخيلتها. وهكذا فعلت. فقد جلست في مساء أحد الأيام لترفو اعقاب الجوارب على الشرفة، فيما كان زوجها ينهي قراءته اليومية بعد القيلولة. وفجأة، قطعت عملها، ورفعت نظارتها إلى جبهتها، واستجوبته دون اية قسوة :

ـ دكتور.

كان غارقاً في قراءة L'LLEDES PINGOUINES، الرواية التي قرأها الجميع في تلك الأيام، واجابها دون ان يخرج من جو الرواية : Oui. فألحت :

ـ انظر إلى وجهي.

فعل ذلك، ناظراً اليها دون ان يراها من خلال غلالة نظارة القراءة، ولكنه لم ينزع النظارة كي لا يحترق بجمرة نظرتها. وسألها:

ـ ما الأمر؟

فقالت :

ـ أنت تعرفه خيراً مني.

ولم تقل شيئاً آخر. بل انزلت نظارتها من جديد وتابعت رفو الجوارب. حينئذ علم الدكتور خوفينال اوربينو ان ساعات الجزع الطويلة قد انتهت. وعلى العكس من تصوره لتلك اللحظة، فانها لم تكن هزة تزلزل القلب، وانما مجرد ضربة سلام. انها الطمأنينة العاجلة لما كان سيحدث آجلاً أم عاجلاً : لقد دخل شبح الانسة باربرا لينتش الى البيت اخيراً.

كان الدكتور خوفينال اوربينو قد تعرف عليها قبل أربعة أشهر، بينما كانت تنتظر دورها في العيادات الخارجية بمشفى الرحمة، وانتبه على الفور بان شيئاً لا سبيل لاصلاحة قد حاق بقدره. كانت خلاسية طويلة القامة، انيقة، ذات عظام طويلة، لبشرتها لون العسل الاسود وقوامه اللدن ذاته، وكانت ترتدي في ذلك الصباح فستاناً أحمر مزيناً بدوائر بيضاء وتضع قبعة من نفس النوع ذات حافة عريضة تفرد ظلها حتى رموش عينيها. وكانت تبدو وكأنها من جنس اكثر تحديداً من سائر ابناء البشر. لم يكن الدكتور خوفينال اوربينو يعالج المرضى في العيادات الخارجية، ولكنه اعتاد، كلما مر من هناك وكان لديه متسع من الوقت، الدخول ليذكر تلاميذه الكبار بانه لا دواء أفضل من التشخيص الجيد. وهكذا تدبر أمره ليكون حاضراً عند فحص الخلاسية العابرة. محاذراً ألا يلحظ تلامذته اية حركة لاتبدو عرضية، ودون ان ينظر اليها تقريباً، ولكنه دوّن في ذاكرته جيداً المعلومات التي قدمتها عن نفسها. وفي هذا المساء بالذات، بعد زيارة اخر مرضاه، جعل العربة تمر من العنوان الذي أفضت به في

العيادة، وكانت هناك فعلاً، تستمتع على الشرفة برطوبة اذار.

كان البيت واحداً من بيوت الانتيل التقليدية، مطلياً كله باللون الاصفر بما في ذلك سقف التوتياء، وله نوافذ مخرمة وفيه اصص قرنفل وسرخس معلقة على البوابة الخارجية، وكان البيت يقوم فوق ركائز خشبية في مستنقع لا مالاكريانثا. وفي قفص معلق بافريز السطح، كان يغرد عصفور توريبال. وعلى الرصيف المقابل للبيت كانت توجد مدرسة ابتدائية، وكان الاطفال يخرجون منها بفوضى اجبرت الحوذي على شد الاعنة بقوة ليحول دون اجفالهم للحصان. لقد كانت تلك ضربة حظ، اذ تمكنت الانسة باربارا لينتش من التعرف على الدكتور. فحيته بحركة معارف قدماء، ودعته ليتناول فنجان قهوة ريثما تنتهي الفوضى، فتناوله بكل سرور، على خلاف عادته، مستمعاً اليها تتحدث عن نفسها، وهو الشيء الوحيد الذي اصبح يهمه منذ ذلك الصباح والشيء الوحيد الذي سيستحوذ على اهتمامه، دون لحظة سلام، خلال الاشهر التالية. لقد قال له احد اصدقائه بحضور زوجته في احدى المناسبات، وهو حديث العهد بالزواج، بانه سيواجه عاجلاً أو آجلاً عاطفة تبعث على الجنون، يمكنها أن تعرض استقرار حياته الزوجية للخطر، لكنه، هو الذي كان يظن بانه يعرف نفسه جيداً، ويعرف متانة جذوره الاخلاقية، ضحك من هذه النبوءة. حسناً اذن : ها هي الآن.

الانسة باربارا لينتش، دكتوراة في علم اللاهوت، هي الابنة الوحيدة للمحترم جونثان ب. لينتش، الراعي البروتستانتي، الزنجي النحيف، الذي ينطلق على بغلته إلى قرى المستنقع الهندية، مبشراً بتعاليم أحد الألهة الكثيرين الذين يكتبهم الدكتور خوفينال اوربينو بادئاً اسمهم بحرف صغير ليميزهم عن إلهه. كانت تتحدث بقشتالية جيدة، مع عثرة ضئيلة في النحو يضاعف تكرارها من ظرافتها. كانت ستتم الثامنة والعشرين من العمر في شهر كانون الثاني، وقد طلقت قبل ذلك بقليل من راعٍ آخر هو أحد أتباع أبيها، وكانت قد تزوجت منه زواجاً سيئاً دام سنتين، ولم تعد لديها رغبة في الزواج مجدداً. قالت : «لا أحب احداً سوى عصفوري التوريبال». لكن الدكتور خوفينال اوربينو كان جدياً بما يكفيه ليفكر بانها انما تقول ذلك متعمدة. بل انه سأل نفسه وهو مضطرب الافكار ما اذا كانت كل هذه التسهيلات مجتمعة ليست سوى فخ من الرب لجعله يدفع الثمن باهظاً فيما بعد، ولكنه أبعد هذا السؤال في الحال من ذهنه على انه حالة لاهوتية سببها وضعه المضطرب.

وعندما ودعها، تطرق بشكل عرضي إلى استشارتها الطبية صباحاً، مدركاً انه ليس أحب للمريض من الحديث عن آلامه، وقد كانت هي في منتهى الروعة بحديثها عن آلامها، حتى

انه وعدها بالعودة في اليوم التالي، الساعة الرابعة تماماً، لفحصها فحصاً دقيقاً. احست بالفزع: كانت تعلم ان طبيباً من هذا النوع بعيد جداً عن امكانياتها، لكنه طمأنها: «اننا نحاول في هذه المهنة جعل الأغنياء يدفعون عن الفقراء». ثم سجل الملاحظة في دفتر جيبه: الآنسة باربارا لنتش، مستنقع لامالا كريانثا، السبت، ٤ مساء. بعد ذلك بشهور، قرأت فيرمينا داثا تلك الملاحظة التي أضيفت اليها تفاصيل التشخيص والعلاج وتطور المرض. وقد لفت الاسم اهتمامها، وخطر لها فجأة بانها واحدة من هؤلاء الفنانات المضللات في سفن نيو اورليانز للفواكه، لكن العنوان جعلها تفكر بان الاحتمال الاقرب الى الصواب هو انها جامايكية، وزنجية بالطبع، فصرفت النظر عنها دون معاناة لعدم انسجامها مع ذوق زوجها.

ذهب الدكتور خوفينال اوربينو إلى موعده يوم السبت متقدماً عشر دقائق، حين لم تكن الانسة لينتش قد انتهت من ارتداء ملابسها لاستقباله. ولم يشعر بتوتر كالذي شعر به امامها منذ ايام باريس، حين كان عليه التقدم لامتحان شفوي. كانت الانسة لينتش جمالاً لا محدوداً وهي مستلقية على السرير، بقميص نوم حريري رقيق. كل ما فيها كان عظيماً وزخماً: فخذاها اللذان كفخذي عروس البحر، وبشرتها المحروقة على نار خفيفة، ونهداها الذاهلان، ولثتها الشفافة ذات الاسنان الدقيقة، وجسدها كله الذي ينضح ببخار العافية، وهي الرائحة البشرية التي وجدتها فيرمينا داثا في ملابس زوجها. كانت قد ذهبت إلى العيادة الخارجية لمعاناتها من شيء تدعوه بظرافة شديدة مغصاً ملتوياً، وظن الدكتور اوربينو بانها اعراض قلة شرب السوائل. وقد لامس على أي حال اعضاءها بغرض أبعد ما يكون عن الاهتمام الطبي، وراح ينسى اثناء ذلك معارفه العلمية ويكتشف مذهولاً ان تلك المخلوقة العجيبة كانت جميلة من الداخل كجمالها من الخارج، وعندئذ ترك متعة اللمس تقوده، ليس على انه الطبيب الاكثر شهرة في ساحل الكاريبي، وانما كرجل بائس على باب الله يعذبه هيجان الغرائز. كان قد حدث له شيء مشابه لهذا مرة واحدة في حياته المهنية الطويلة، وقد كان ذاك هو يوم عاره الكبير، لان المريضة الحانقة ازاحت يده، واعتدلت على السرير قائلة له: «ان ماتريده يمكن ان يحدث، ولكن ليس هكذا». أما الآنسة لينتش، فقد سلمت نفسها ليديه، وحين لم يعد لديها ادنى شك في ان الطبيب ما عاد يفكر بعلمه، قالت:

- كنت أظن ان هذا غير مسموح في الاخلاق الطبية.

كان مبللاً بالعرق وكأنه خارج بملابسه من بركة ماء، فمسح يديه ووجهه بمنشفة، وقال:

- الاخلاق الطبية تتصورنا معشر الاطباء من خشب.

مدت له يداً شاكرة وقالت:

- كوني كنت أظن لا يعني انه لا يمكنك فعل ذلك. تصور ما الذي سيحدث لزنجية مسكينة مثلي حين يهتم بي رجل بالغ الاهمية.

فقال:

- لم أتوقف عن التفكير بك لحظة واحدة.

كان اعترافاً مرتعشاً إلى حد جعله جديراً بالشفقة. ولكنها وضعته بمنجى من كل شر بقهقهة أضاءت حجرة النوم. وقالت:

- أعرف ذلك مذ رأيتك في المستشفى يا دكتور. صحيح انني زنجية، ولكنني لست غبية.

لم يكن الامر سهلاً. فالانسة لينتش تريد شرفها نظيفاً، وتريد الامان والحب، وترى انها جديرة بذلك. لقد اتاحت للدكتور خوفينال اوربينو فرصة اغوائها، انما دون السماح له بالدخول إلى الحجرة اثناء وجودها وحيدة في البيت. وأبعد ما وصلت اليه هو السماح له بتكرار طقوس اللمس والفحص بالتنصت مع كل ما يرافق ذلك من خروقات اخلاقية يشاؤها، ولكن دون ان تنزع ثيابها. أما هو، فلم يستطع افلات الطعم بعد ان ابتلعه، وثابر على حصاره اليومي. كان استمرار علاقته بالانسة لينتش شبه مستحيل لاسباب مرتبطة بنظامه العملي، ولكنه كان أضعف من ان يكبح نفسه في الوقت المناسب، كضعفه في المضي قدماً فيما بعد. لقد كانت له حدوده

لم تكن حياة المحترم لينتش بالحياة المنتظمة، فهو ينطلق في أي وقت على متن بغلته المحملة في أحد جانبيها بكتب مقدسة ونشرات دعائية انجيلية، وفي الجانب الآخر بالزاد ومواد التموين، ويرجع حين لا تخطر عودته ببال أحد. كما كان هناك عائق آخر يتمثل بالمدرسة المقابلة، فالاطفال فيها يغنون دروسهم وهم ينظرون إلى الشارع من النافذة، وأفضل ما يرونه هو البيت القائم على الرصيف المقابل، بابوابه ونوافذه المشرعة على مصراعيها منذ الساعة السادسة صباحاً، ويرون الانسة لينتش وهي تعلق القفص بافريز السطح ليتعلم طائر التوربيال موسيقى الدروس المغناة، ويرونها بعمامتها الملونة وهي تغني أيضاً بصوتها الكاريبي النقي اثناء قيامها بأعمال البيت، ويرونها بعد ذلك جالسة على الشرفة لتغني وحدها بالانكليزية مزامير المساء.

كان عليه ان يختار وقتاً لا يكون الاطفال موجودين فيه، ولم يكن امامه سوى احتمالين: اما اثناء استراحة الغداء، ما بين الثانية عشرة والثانية، وهو الوقت الذي يذهب فيه الدكتور لتناول الغداء ايضاً، واما في المساء، حين ينصرف الاطفال إلى بيوتهم. وقد كان هذا الاحتمال الاخير هو الأفضل دائماً، ولكن الدكتور يكون حينئذ قد انهى زياراته ولا يبقى امامه

سوى دقائق قليلة للوصول الى البيت وتناول الطعام مع اسرته. أما المشكلة الثالثة، وهي الاخطر بالنسبة له، فكانت تتمثل في وضعه بالذات. اذ لم يكن بامكانه الذهاب دون العربة، وهي عربة معروفة جيداً ويجب ان تنتظره دوماً أمام الباب. كان بإمكانه الاتفاق مع الحوذي، كما يفعل جميع اصدقائه في النادي الاجتماعي تقريباً، ولكن هذا الأمر كان غريباً عن عاداته. حتى ان حوذي العائلة نفسه، وبعد ان أصبحت زياراته للانسة لينتش مكشوفة بما فيه الكفاية، تجرأ على سؤاله اذا لم يكن من الأفضل ان يرجع بحثاً عنه فيما بعد كي لا تبقى العربة متوقفة امام الباب لوقت طويل. لكن الدكتور اوربينو قاطعه بردة فعل غريبة على طبيعته قائلاً:

- هذه هي المرة الأولى التي اسمعك فيها تقول شيئاً يجب عليك ألا تقوله مذ عرفتك. ولكن لا بأس: سأعتبر انك لم تقل شيئاً.

لم يكن ثمة مفر: ففي مدينة كهذه لايمكن اخفاء أمر مرض ما دامت عربة الطبيب عند الباب. لقد كان الطبيب يبادر احياناً بالذهاب الى بيت المريض مشياً على الاقدام حين تسمح المسافة بذلك، أو الذهاب في عربة اجرة، ليحول دون تخمينات خبيثة أو مبكرة. ومع ذلك، فان هذه الحيل لم تكن ذات نفع كبير، فالادوية التي يصفها الطبيب لتشترى من الصيدليات تتيح كشف الحقيقة، مما كان يدفع الدكتور اوربينو إلى وصف ادوية مزيفة إلى جانب الادوية الصحيحة، ليحفظ حقوق المرضى في الموت بسلام مع أسرار امراضهم. ورغم قدرته كذلك على ان يبرر بوسائل شريفة مختلفة، وقوف عربته امام دار الانسة لينتش، إلا انه لن يتمكن فعل ذلك لزمن طويل، بل لوقت اقصر بكثير من الزمن الذي كان يرغب فيه: مدى الحياة.

صارت دنياه جحيماً. فما ان ارتوى الجنون الأول حتى ادرك كلاهما المخاطر المحيقة بهما، لم يكن الدكتور خوفينال اوربينو قد حسم أمره يوماً وأعد نفسه لمواجهة الفضيحة. لقد كان يعدها بكل شيء اثناء هذيانه المحموم، ولكنه بعد الانتهاء، يؤجل كل شيء إلى ما بعد. وذلك بالمقابل كلما ازداد شوقه للقائها يزداد كذلك خوفه من فقدانها، وهكذا أصبحت لقاءاتهما سريعة وصعبة. لم يكن يفكر بشيء آخر. كان ينتظر المساء بجزع لا يُطاق، وينسى مواعيده الاخرى، ينسى كل شيء سواها، ولكن ما ان تبدأ العربة بالاقتراب من مستنقع لا مالا كريانثا حتى يأخذ بالابتهال إلى الله ليبعث له عائقاً في اللحظة الاخيرة يجعله يواصل طريقه دون الدخول اليها. كان يعاني حالة من الكآبة تجعله يبتهج حين يرى أحياناً، وهو على الناصية، رأس المحترم لينتش الملفوف بالقطن جالساً يقرأ على الشرفة، والابنة في الصالة تلقن أصول الدين لأطفال الحي من خلال الاناجيل المغناة. فيمضي حينئذ سعيداً إلى بيته

كي لا يستمر في تحدي القدر. ولكنه لا يلبث ان يشعر بقلق مجنون يتمنى خلاله ان يتحول اليوم كله وجميع الايام لتصبح جميعها الخامسة مساء فقط.

اصبحت تلك الغراميات مستحيلة حين أخذ ظهور العربة يكثر أمام الباب، ولم يعد ذلك الحب بعد مرور ثلاثة شهور سوى عمل مضحك. فقد كانت الانسة لينتش تدخل حجرة النوم دون أن يتاح لها الوقت لقول أي شيء، بمجرد رؤيتها العاشق الولهان يدخل. وكانت تتخذ الاحتياطات المسبقة في الايام التي تنتظر قدومه فيها بارتدائها فستانا جامايكيا بديعا مزينا بزهور ملونة، ولكن دون أية ملابس داخلية، ودون أي شيء، معتقدة أن السهولة ستساعده في التغلب على الخوف. لكنه كان يهدر كل ما تفعله لاسعاده. فيلحقها الى حجرة النوم لاهثا ومبللا بالعرق، ثم يبدأ بالتخلص مما يحمله ملقيا بكل شيء على الارض: العكاز، وحقيبة الطبيب، والقبعة البنمية، ليمارس حباً مرتبكاً بسروال مجعد عند كاحليه وسترة مزرورة ليكون ازعاجها أقل، وسلسلة ذهبية مثبتة في صدريته، وهو منتعل حذاءه، وكل شيء، مهتما بالذهاب بأسرع ما يمكن اكثر من اهتمامه باستكمال المتعة. وتبقى هي صائمة، ما ان تهم بدخول نفق عزلته، حتى يبدأ باحكام ازرار سرواله من جديد وهو منهك، كما لو انه مارس الحب المطلق على الخط الفاصل بين الحياة والموت، بينما هو لم يفعل في الحقيقة اكثر مما يتطلبه فعل الحب من جهد جسدي. ولكنه يبقى ضمن حدود قانونه: انه الوقت اللازم بالضبط لاعطاء حقنة في العضل لحالة علاج روتينية. ويعود بعدئذ الى البيت خجلا من ضعفه، راغبا في الموت، ولاعنا فقدانه الشجاعة اللازمة للطلب من فيرمينا داثا ان تنزع له سرواله وتجلسه على الجمر لتحرق قفاه.

لم يكن يتعشى، وكان يصلي دون ايمان، ويتصنع مواصلة قراءة ما بعد القيلولة وهو في الفراش فيما زوجته تلف في البيت وتدور مرتبة الدنيا قبل ان تنام. وما ان يداعبه النعاس فوق الكتاب حتى يأخذ بالغرق شيئا فشيئا في غابة الانسة لينتش التي لا مفر منها، يغرق في رائحتها التي كرائحة غابة راقدة فوق فراشها الذي كفراش الموت، ولا يستطيع التفكير عندئذ بشيء سوى الساعة الخامسة الا خمس دقائق من مساء اليوم التالي، وبها تنتظره في السرير دون أي شيء سوى جبلها اللدن القاتم تحت الفستان الجامايكي المجنون: انها الدائرة الجهنمية.

كان قد بدأ يعي ثقل جسده منذ بضع سنوات. وكان يعرف الاعراض. لقد قرأها في كتب الطب، ولمسها في الحياة الواقعية بمعاينتها في مرضى هرمين، بلا سوابق مرضية خطيرة، يبدؤون فجأة بوصف أعراض دقيقة يبدو وكأنهم يستخرجونها من كتب الطب، رغم انها لا تعدو كونها اوهاما. لقد نصحه استاذ طب الاطفال في جامعة سالبيتر ير يوماً بدراسة طب

الاطفـال لانـه أنبـل اختصـاص، فالاطفـال لا يمـرضـون الا حين يكونون مرضى حقا، ولا يستطيعـون التـواصـل مع الطبيب بالكلمات الاصطلاحية وانما بالاعراض المحددة للامراض الحقيقيـة. أمـا البـالغين، اعتبارا من سن معين، فاما ان لديهم أعراضا بلا أمراض، واما ان لديهم ماهو اسوأ من ذلك: امراضاً خطيرة وأعراض أمراض اخرى ليست ذات شأن. وكان هو يشغلهم بالمسكنات. متيحا الوقت للزمن، كي يتعلموا عدم الشعور بتوعكات الكبر بعد معايشتهم لها في مزبلة الشيخوخة. وما لم يفكر به الدكتور خوفينال اوربينو أبدا هو ان طبيبا في مثل سنه، يظن بأنه رأى كل شيء وخبره، لن يستطيع تجاوز قلق شعوره بانه مريض حين لا يكون كذلك. أو يقع له ما هو أسوأ بان يظن انه ليس مريضا، متعللا باوهام طبية محضة، في حين ربـما يكـون مريضـا فعـلا. لقـد قال في احد دروسه يوماً وهو في الاربعين، نصف مازح ونصف جاد: «الشيء الـوحيـد الـذي احتـاجه في الحياة هو أحد يفهمني». ولكنه حين وجد نفسه ضائعا في متاهة الآنسة لينتش لم يفكر بالامر مازحاً.

جميع الاعـراض الحقيقيـة والوهمية لمرضاه المسنين اجتمعت في جسده. فكان يحس شكل كبـده بوضـوح، ويستطيـع تحديـد حجمـه دون ان يلمسـه. كان يشعر بزمجرة القط النائم في كليتيه، ويشعر ببريق مرارته الساطع، ويحس خرير الدم في شرايينه. وكان يستيقظ صباحا في بعض الاحيان كسمكة لا تجد الهواء للتنفس. ويشعر بوجود ماء في قلبه، ويحس به يفقد ايقاعه للحظة، أو يشعر به، بين حين وآخر، يتأخر في نبضة من نبضاته، كما في المشية العسكرية أيام المدرسة، ثم يشعر بانه يستعيد قواه لان الله كبير. ولكنه بدلا من ان يلجأ الى علاج السلوى الذي كان يطبقه على المرضى، فانه سمح للخوف ان يغميه. حقا ان الشيء الوحيد الذي يحتاجه في الحياة، وهو في الثامنة والخمسين من العمر أيضاً، هو أحد يفهمه. وهكذا لجأ الى فيرمينا داثا، اكثر من تحبه ويحبها في هذا العالم، ومن سيريح ضميره أمامها.

حدث هذا بعـد ان قاطعتـه في قراءتـه المسائيـة لتطلب منه ان ينظر الى وجهها، فجاءته الاشارة الاولى بان حلقته الجهنمية قد كُشفت. لم يفهم كيف حدث ذلك، اذ كان مستحيلا عليه ان يتصور بان فيرمينا داثا اكتشفت الحقيقة بمجرد الشم. لكن هذه المدينة لم تكن على اي حال، ومنـذ زمن بعيـد، بالمـدينـة المنـاسبة لكتمان الاسرار. فبعد وقت قصير من وصول اجهـزة الهـاتف الاولى، انهـارت عدة زيجـات كانت تبـدو راسخـة، تحت نمائم الاتصـالات الهاتفية المجهولة، ردفع الرعب عائلات كثيرة الى الغاء اشتراكها أورفض الاشتراك بالهاتف لسنوات طويلة. كان الـدكتـور خوفينال اوربينو يعرف ان زوجته تعتز بنفسها كثيراً بحيث لا تسمـح حتى بمحـاولـة وشاية مجهولة بالهاتف، ولم يكن قادراً على تصور ان أحداً يتجرأ على اخبـارهـا معلنا عن اسمه. لكنه بالمقابل كان يخشى الوسيلة القديمة: ورقة تدسها يد مجهولة

من تحت البـاب يمكنهـا ان تكـون فعـالـة، ليس لانهـا تضمن ازدواجيـة المجهولية للمرسل والمرسل اليه، وانما لان اصلها العريق يتيح ربطها بعلاقة ميتا فيزيقية ما مع تدابير العناية الالهية.

لم تكن الغيرة تعرف الى البيت سبيلا: فخلال اكثر من ثلاثين سنة من السلام الزوجي، كان الـدكتـور اوربينـو يفـاخـر في الامـاكن العـامة، وكان صادقاً حتى ذلك الحين، بانه مثل الثقاب السويدي، لا يشتعل الا بعلبته. لكنه كان يجهل كيف يمكن ان يكون رد فعل زوجته بكبريائها واعتزازها الشديد بنفسها وبطبعها الحاد، أمام خيانة ثابتة. وهكذا فانه حين تطلع في وجهها كما طلبت منه، لم يخطر له شيء سوى ان يخفض بصره من جديد ليغرق في القلق، وظل يتظاهر بالانغماس في تعرجات نهر جزيرة ألكا العذب، ريثما يخطر له ما يفعله. ولم تقل فيرمينـا داثـا من جهتهـا شيئـا أخـر. وعنـدما انتهت من رفو الجوارب، ألقت بالادوات دون انتظام في علبة الخياطة، وأعطت التعليمات في المطبخ لاعداد العشاء، ومضت الى حجرة النوم.

حينئذ اتخذ قراره الحاسم ولم يذهب في الساعة الخامسة الى منزل الانسة لينتش. أما وعود الحب الابدي، والحلم ببيت سري لها وحدها حيث يستطيع زيارتها دون مفاجآت، والسعادة على مهل حتى الموت، وكل ما وعدها به اثناء ومضات الحب ألغي الى الابد. وأخر ما تلقته منه الانسة لينتش كان اكليلا من الزمرد سلمها اياه الحوذي دون أي تعليق، دون أي رسالة، دون أيـة ملاحظـة مكتـوبـة، في علبـة ملفـوفة بورق صيدلية، حتى يظنه الحوذي نفسه دواء مستعجـلا. ولم يعـد لرؤيتهـا ولو مصادفة خلال ما تبقى من حياته، والله وحده يعلم كم من الالام كلفـه هذا القـرار البطـولي، وكم من الـدمـوع المـريرة سكب وهو محبوس في المرحاض ليتجـاوز كارثـته الحميمـة. فبـدلا من ان يذهب اليهـا في السـاعة الخامسة، قام بتقديم توبته النصـوح أمـام كاهن الاعتـراف، وشـارك يوم الاحـد التـالي في تناول القربان الرباني بقلب مفتت، انما روح مطمئنة.

يوم قطع علاقته بها، وفيما هو ينزع ملابسه لينام، كرر على مسامع فيرمينا داثا تراتيل ارقه الصبـاحي المـريـرة، والـوخزات المباغتة، والرغبة بالبكاء عند الظهيرة، والاعراض المقتضبة للحب الخفي التي كان يرويها لها حينئذ كما لو كانت اعراض الشيخوخة البائسة. كان عليه ان يحكي ذلك لاحد كي لا يموت.. كي لا يروي الحقيقة، ثم ان تلك المفاتحات بمكنون قلبه كانت أولا واخيرا أحـد طقـوس الحب البيتي. استمعت اليـه باهتمام، انما دون النظر اليه، ودون ان تقول شيئا، بينما هي تتناول منه الملابس التي يخلعها. كانت تشم كل قطعة منها دون

أمية ايماءة تشي بغضبها، ثم تطويها كيفما اتفق، وتلقي بها الى سلة الثياب المتسخة الخيزرانية. لم تجد الرائحة، ولكن الامر سيان: غدا سيكون يوم آخر. وقبل ان تجثو للصلاة أمام المذبح الصغير في حجرة النوم، اختتم هو روايته المكرورة عن بؤسه بتنهدة حزينة وصريحة أيضا: «أظن انني سأموت». ولم ترمش رمشة واحدة حين ردت عليه قائلة:

ـ سيكون هذا أفضل. لاننا سنستريح كلانا.

قبل سنوات، وخلال ازمة مرض خطير، كان قد تحدث عن احتمال موته، وكانت هي قد ردت بالجواب القاسي نفسه. وقد عزا الدكتور اوربينو ذلك يومها الى قسوة النساء، هذه التي تتابع الارض بفضلها الدوران حول الشمس، لانه كانَ يجهل حينئذ بانها تقيم دوماً حاجزا من الغضب لتخفي خوفها، ولتخفي يومئذ اكثر مخاوفها رهبة، الا وهو الخوف من البقاء بدونه.

لكنها تمنت له الموت في تلك الليلة بكل حدة قلبها، وقد أفزعه هذا اليقين. بعد ذلك سمعها تبكي في الظلام، بوهن شديد، عاضة الوسادة كي لا يسمعها. فبهزه ذلك، لانه كان يعلم انها لا تبكي بسهولة من أي ألم جسدي اوروحي. وانها تبكي بتأثير حنق عظيم فقط، ويكون بكاؤها أشد اذا ما كان هذا الحنق ناشئا، بطريقة ما، عن خوفها من الشعور بالذنب. لم يتجرأ على مواساتها، مدركا ان ذلك سيكون اشبه بمواساة نمرة مطعونة بحربة. ولم يمتلك الجرأة ليقول لها ان اسباب بكائها قد زالت هذا المساء، وانها انتزعت من جذورها الى الابد، حتى من ذاكرته.

هزمه الارهاق لدقائق. وعندما استيقظ وجد انها قد اضاءت النور الخفيف الذي الى جانبها وانها مازالت مفتوحة العينين، انما دون بكاء. لقد حدث لها شيء حاسم فيما هو نائم: فالرواسب التي تراكمت في قاع عمرها خلال سنوات طويلة قد هاجت بعذاب الغيرة، وخرجت طافية الى السطح، وأهرمتها في لحظة واحدة. فتجرأ على القول لها انها تحاول النوم وهو مذهول لتجاعيدها الفجائية، ولشفتيها الذاويتين، ولرماد شعرها. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. فكلمته دون ان تنظر اليه، ولكن دون اي أثر للسخط في صوتها، بل بصوت أقرب الى الوداعة، قائلة له:

ـ لي الحق بان أعرف من هي.

عندئذ روى لها كل شيء، شاعراً بانه يرفع عن كاهله ثقل العالم، لانه كان مقتنعا بانها تعرف كل شيء ولا ينقصها سوى التأكد من التفاصيل. لكن الامر لم يكن كذلك طبعاً، وفيما هو يتكلم عادت هي تبكي، ليس باجهاشات خجولة كما في البدء، وانما بدموع منطلقة ومالحة تجري على وجهها، وتلتهب على قميص نومها وتحرق حياتها، لانه لم يفعل ما كانت

تنتظره منه وروحها معلقة بخيط، اذ كانت تنتظر منه ان ينكر كل شيء حتى الموت، وان يغضب من الافتراء، وان يلعن ناس هذا المجتمع ابن العاهرة الذين لايتورعون عن دوس شرف الاخرين، وان يقف ثابت الجأش حتى امام الادلة الدامغة على خيانته: كرجل. بعد ذلك، وحين روى لها بانه كان عند كاهن الاعتراف هذا المساء، خشي ان يعميها الغضب. فمنذ أيام المدرسة وهي مقتنعة بان أهل الكنيسة لايتمتعون بأية فضيلة ملهمة من الرب. وكان هذا خلافاً جوهريا في الانسجام البيتي، تمكنا من حله دون صدامات. انما كون زوجها قد سمح لكاهن الاعتراف بالتدخل الى هذا الحد في شأن خاص ليس ملكاً له وحده فقط، بل وملكها ايضاً، كان شيئا يتجاوز كل الحدود.

قالت:

ـ ان هذا كاستشارة حاوي ثعابين من حواة الازقة.

كان ذلك هو النهاية بالنسبة لها. كانت متأكدة من ان شرفها أصبح على كل لسان قبل ان ينتهي زوجها من الاعتراف، وشعور المهانة الذي اثاره ذلك كان أثقل وطأة من عار وغضب وظلم الخيانة. والاسوأ من كل بذلك، باللعنة.. مع زنجية. فصحح قائلا: «خلاسية». ولكن أي تحديد كان فائضا عن اللزوم حينئذ: لقد انتهى الأمر.

قالت:

ـ انها اللعنة نفسها. والآن فقط بدأت افهم: لقد كانت رائحة زنجية.

حدث هذا يوم الاثنين. وفي السابعة من مساء يوم الجمعة، ابحرت فيرمينا داثا في السفينة الصغيرة النظامية الذاهبة الى سان خوان دي لا ثيناغا، دون ان تأخذ معها سوى صندوق واحد، وبرفقة ابنة بالعماد، وكانت تغطي وجهها بطرحة لتحول دون الاسئلة لها ولزوجها كذلك. لم يذهب الدكتور خوفينال اوربينو الى الميناء، باتفاقهما معا، بعد مناقشة مضنية دامت ثلاثة أيام، قررا على اثرها ان تذهب الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث، في بلدة فلوريس دي ماريا، لتفكر جيدا قبل اقدامها على اتخاذ قرار نهائي. وقد فهم الابناء الامر، دون ان يعرفا الاسباب، على انه رحلة جرى تأجيلها مرات ومرات، وكانا هما نفسيهما يرغبان فيها منذ زمن بعيد. وقد رتب الدكتور خوفينال اوربينو الامور بحيث لا يتاح لأحد من أبناء عالمه الغادر الوصول الى تخمينات خبيثة، وفعل ذلك باتقان حتى ان اخفاق فلورينتينو اريثا بالعثور على اي أثر لاختفاء فيرمينا داثا لم يكن لضعف وسائله في التقصي وانما لعدم وجود اية اثار فعلا. ولم يكن يراود الزوج أي شك في انها ستعود بعد ان يفارقها الغضب. أما هي، فذهبت واثقة ان الغضب لن يفارقها ابد الدهر.

لكنها سرعان ما ستدرك ان هذا القرار الحاسم لم يكن ثمرة الحقد بقدر ماهو وليد الحنين.

فبعد رحلة شهر العسل عادت عدة مرات الى اوروربا، رغم قسوة الايام العشرة التي تمضيها في البحر، ولقد كانت رحلاتها تستغرق دوما وقتا كافيا للاحساس بالسعادة. كانت تعرف العالم، وتعلمت العيش والتفكير بطريقة اخرى، لكنها لم ترجع أبدا الى سان خوان دي لاثيناغا بعد رحلة المنطاد الفاشلة. كان في العودة الى مقاطعة ابنة الخال هيلدبيراندا شيئا من استعادة الماضي بالنسبة لها، حتى ولو حدثت هذه الاستعادة متأخرة. لم تفكر بذلك تحت تأثير نكبتها الزوجية: بل قبل ذلك بكثير. وهكذا فان مجرد فكرة تنقيبها عن ذكريات صباها كان يعزيها في تعاستها.

عندما نزلت الى البر مع ابنتها في العهاد في سان خوان دي لاثيناغا، لجأت الى مافي طبعها من احتياطيات هائلة، وتعرفت على المدينة رغم كل التحذيرات. وقد دعاها القائد المدني والعسكري للموقع، الذي ذهبت اليه بتوصية للاهتمام بها، دعاها الى جولة في العربة الرسمية ريثما يخرج القطار الذاهب الى سان بيدرو اليخاندرينو، حيث ارادت الذهاب للتأكد مما قيل لها من أن السرير الذي مات عليه بطل التحرير[١] كان صغيرا جدا كسرير طفل. وكان ان عادت فيرمينا داثا حينئذ لرؤية قريتها الكبيرة في سكون الثانية مساء. عادت لرؤية الشوارع التي تبدو اشبه بشطآن صغيرة للبرك المغطاة بالطحالب، وعادت لرؤية بيوت البرتغاليين بشعارات النبلاء المحفورة على الرواق المقنطر وعلى مشربيات النوافذ البرونزية، حيث تتردد دون رحمة في صالاتها الظليلة تمارين البيانو المكرورة والحزينة، التي كانت تعلمها امها حديثة الزواج لبنات البيوت الثرية الصغيرات. رأت الساحة الخاوية من اية شجرة في جمر الحجارة المتقدة، وصف العربات ذات الاغطية الجنائزية وخيولها النائمة وقوفا، وقطار سان بيدرو اليخاندرينو الاصفر، ورأت عند زاوية الكنيسة الكبرى اكبر بيت بين جميع البيوت واكثرها جمالا برواقه الحجري المقنطر الذي تغطيه نباتات خضراء، وبوابته الضخمة كبوابة دير، ونافذة غرفة النوم التي ستولد فيها ألفارو بعد سنوات طويلة، حين لن تعود لها ذاكرة لتتذكر ذلك. فكرت بالعمة اسكولاستيكا، التي ما زالت تبحث عنها دون أمل في السماء والارض. وفيما هي تفكر بها وجدت نفسها تفكر بفلورينتينو اريثا، بثيابه كأديب وبكتاب اشعاره تحت اشجار اللوز في الحديقة، كما يحدث لها أحيانا حين تتذكر سنوات المدرسة الكريهة. وبعد تجوال طويل لم تفلح في التعرف على بيتها العائلي القديم، فحيث كانت تفترض وجوده لم يكن يوجد سوى حظيرة خنازير، وعند المنعطف كان يمتد شارع بيوت الدعارة، حيث مومسات من ارجاء الدنيا ينمن قيلولتهن أمام الابواب، فلربما مر

---

(١) المقصود ببطل التحرير (El Libertador) هو محرر أميركا الجنوبية سيمون بوليفار.

البريد حاملا لهن شيئاً . . . لم تكن البلدة هي بلدتها.

منذ بداية الجولة في المدينة، غطت فيرمينا داثا نصف وجهها بالطرحة، ليس خوفا من التعرف اليها حيث لا أحد يستطيع التعرف عليها، وانما لمرأى الموتى الذين ينتفخون تحت الشمس في كل مكان، بدءا من محطة القطار وحتى المقبرة. وقال لها القائد المدني والعسكري للموقع: «انها الكوليرا». كانت تعلم ذلك، لانها رأت الخثارات البيضاء على فم الجثث المكتوية، لكنها لاحظت انه لا اثر لرصاصة الرحمة في عنق اي جثة من الجثث، كما كان الأمر في زمن المنطاد.

فقال لها الضابط:

ـ وهو كذلك. فالرب يحسن من اساليبه ايضا.

كانت المسافة التى تفصل سان خوان دي لاثيناغا عن بلدة سان بيدرو اليخاندرينو القديمة هي تسعة فراسخ فقط، لكن القطار الاصفر كان يستغرق في اجتيازها يوما كاملا، لان صداقات كانت تربط سائق القطار بالمسافرين الدائمين الذين يرجونه التوقف لبعض الوقت كي يحركوا ارجلهم بالمشي في مرابع الغولف التابعة لشركة الموز، أوليستحم بعض الرجال منهم، وهم عراة، في الانهار الصافية والمثلجة التى تنحدر من الجبال، أو انهم ينزلون من القطار حين يشعرون بالجوع ليحلبوا الابقار الطليقة في المراعي. وعندما وصلت فيرمينا داثا مروعة، لم يتح لها الوقت للتمعن باشجار التمر الهندي الهوميرية حيث كان بطل التحرير يعلق شبكة نومه التي احتضر عليها، وللتأكد من ان السرير الذي مات عليه لم يكن صغيرا بالنسبة لرجل، كما قالوا لها فقط، بل انه صغير حتى على مولود خديج. ولكن زائرا آخر يبدو انه يعرف كل شيء، قال ان السرير ليس الا أثرا زائفا، والحقيقة هي أن أبا الوطن قد ترك يموت وهو ملقى على الارض. كانت فيرمينا داثا مغمومة لما رأته وسمعته مذ خرجت من بيتها، لدرجة انها لم تعد تشعر بالسعادة التي حنت اليها دوما، وانما اخذت تتجنب المرور من القرى التي كانت تحن اليها. وهكذا حمت تلك القرى وحمت نفسها من خيبة الامل. كانت تسمع العزف على الأوكورديونات من الطريق حيث كانت تهرب من خيبة الامل، وتسمع الصرخات المنبعثة من حلبة صراع الديكه، وطلقات الرصاص التي قد تكون رصاصات حرب أو احتفال، وحين لا تجد مفرا من المرور في احدى القرى، كانت تغطي وجهها بالطرحة لتستمتع بتذكرها كما كانت من قبل.

في احدى الليالي، وبعد تجنب طويل للماضي، وصلت الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا، وحين رأتها تنتظر أمام الباب كادت تسقط مغميا عليها: كانت وكأنها ترى نفسها في مرآة الحقيقة. لقد رأتها بدينة وهرمة، محاطة بابناء غير مروضين لم تنجبهم من

الرجل الذي مازالت تحبه دون أمل، وانما من ضابط ينعم بتقاعد جيد تزوجت منه غيظا لفشلها واحبها بجنون. ولكنها في اعماق جسدها المدمر كانت ماتزال على حالها. وقد تخلصت فيرمينا داثا من هذا الانطباع بعد ايام قليلة في الريف وبتأثير الذكريات الطيبة. لكنها لم تغادر المزرعة الا للذهاب الى القداس في أيام الاحاد برفقة أحفاد صديقاتها القديمات الجموحات، الحاذقين في ركوب الخيول الكريمة، وبرفقة بناتهن الجميلات الانيقات، اللواتي يشبهن امهاتهن حين كن في سنهن، واللواتي يمضين وقوفا في العربات التي تجرها الجواميس، ويغنين معا، حتى وصولهن الى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي. ولم تمر الا بقرية فلوريس دي ماريا، التي لم تزرها في رحلتها السابقة لانها لم تظن بانها ستعجبها، ولكنها فتنت بها حين عرفتها. وكانت مصيبتها، اومصيبة البلدة، انها لم تستطع ان تتذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع، وانما كما كانت تتخيلها قبل ان تعرفها.

قرر الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لاحضارها بعد تلقيه تقرير اسقف ريوهاتشا. فالنتيجة التي استخلصها هي ان زوجته لم تتأخر لانها لاتريد الرجوع وانما لانها لاتجد وسيلة لتجاوز كبريائها. وهكذا مضى الى هناك دون اعلامها، بعد تبادل عدة رسائل مع هيلديبراندا، استخلص منها بوضوح ان حنين زوجته قد انقلب: فهي لاتفكر الان الا ببيتها. كانت فيرمينا داثا في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة صباحا، حين سمعت صرخات عمال المزرعة، وصهيل الخيول، ولعلعة الرصاص في الهواء، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت، وصوت الرجل:

ـ ان يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة اليه.

ظنت انها ستموت من السعادة. ودون ان يتاح لها الوقت للتفكير بالأمر، غسلت يديها كيفما اتفق وهي تهمهم: «حمداً لك يارب، حمدا لك، لكم انت طيب»، مفكرة بانها لم تستحم بعد من الباذنجان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا اعداده دون ان تخبرها من القادم للغداء، ومفكرة بانها قد اصبحت عجوزاً قبيحة، وان وجهها قد سلخته الشمس، مما سيجعله يندم لمجيئه حين يجدها بهذا الحال، اللعنة. لكنها نشفت يديها بالمريلة كيفما اتفق. واستعانت بكل الكبرياء الذي اخرجتها به امها الى الدنيا لتضبط قلبها المتراقص طرباً. ومضت للقاء الرجل بمشيتها الغزلانية العذبة، وبرأسها المرفوع، ونظرتها البراقة، وانفها الحربي، شاكرة للقدر الطمأنينة العظيمة بالعودة الى البيت، رغم ان الامر لن يكون بالسهولة التي تصورها هو حتما، اذ عادت معه وهي سعيدة حقا، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الالام المريرة التي حطمت حياتها.

بعد حوالي سنتين من اختفاء فيرمينا داثا، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة

التي كانت ستعتبرها ترانسيتو اريثا سخرية من سخريات الرب. لم يكن فلورينتينو اريثا قد سمح لنفسه بالانبهار باختراع السينما. لكن ليونا كاسياني حملته دون مقاومة الى حفل الافتتاح الضخم لفيلم كابيريا، الذي كانت شعبيته ترتكز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرييل دانونزيو. كان فناء سينما دون غاليليو داكونتي المكشوف، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم الى روعة الغراميات الصامته على الشاشة، قد غص بالحضور البارزين. كانت ليونا كاسياني تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط. أما فلورينتينو اريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس بتأثير زخم الدراما. ومن خلفه، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر مايفكر به:

ـ رباه، ان هذا أطول من ألم!

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته، وكظمت نفسها ربما بسبب رنين صوتها في الظلام، اذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الافلام الصامتة بموسيقى البيانو، ولم يكن يسمع في عتمة الصالة سوى ازيز الة العرض الذي يشبه صوت المطر. لم يكن فلورينتينو اريثا يذكر الرب الا في أصعب المواقف، لكنه شكره من اعماق روحه هذه المرة. لانه كان سيتعرف فورا على ذلك الصوت المعدني الرخيم. حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعا تحت التراب، مذ حفظه في روحة مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الاوراق الصفراء في حديقة متوحدة: «انصرف الان، ولاترجع الى ان اطلب اليك». كان يعلم انها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده، الى جانب زوجها دون ريب. وكان يحس بتنفسها الدسم والمحسوب جيداً، وكان يستنشق بحب الهواء المنقى بعافية نفسها الطيب. لم يشعر بانها منخورة بعث الموت، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الاخيرة، وانما تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد، ببطنها المكورة ببذرة ابنها الاول تحت عباءة مينيرفا. تصورها كما لو كان يراها دون أن يلتفت الى الوراء، غير عابيء بالكوارث التاريخية التي كانت تفيض بها الشاشة. كان يتلذذ بأريج عطر اللوز الذي يصله من جسدها، ويتشوق لمعرفة افكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة. وقبيل نهاية الفيلم بقليل، ادرك فجأة بومضة بهجة، انه لم يكن ابدأ قريبا بهذا القدر وطوال مثل هذا الوقت ممن احبها حبا جما.

انتظر ان ينهض الاخرون عند اشعال الانوار. ثم وقف على مهل، والتفت متشاغلا بتثبيت ازرار الصدرية التي تفلت دائما خلال عروض السينما، فتقابل الاربعة وجها لوجه بحيث توجب عليهم تبادل التحية، رغم ان احدا منهم ما كان يرغب بذلك. صافح الدكتور خوفينال اوربينو ليونا كاسياني أولا، وكان يعرفها جيدا، ثم شد على يد فلورينتينو اريثا بتهذبه

الرجل الذي مازالت تحبه دون أمل، وانما من ضابط ينعم بتقاعد جيد تزوجت منه غيظا لفشلها واحبها بجنون. ولكنها في اعماق جسدها المدمر كانت ماتزال على حالها. وقد تخلصت فيرمينا داثا من هذا الانطباع بعد ايام قليلة في الريف وبتأثير الذكريات الطيبة. لكنها لم تغادر المزرعة الا للذهاب الى القداس في أيام الاحاد برفقة أحفاد صديقاتها القديمات الجموحات، الحاذقين في ركوب الخيول الكريمة، وبرفقة بناتهن الجميلات الانيقات، اللواتي يشبهن امهاتهن حين كن في سنهن، واللواتي يمضين وقوفا في العربات التي تجرها الجواميس، ويغنين معا، حتى وصولهن الى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي. ولم تمر الا بقرية فلوريس دي ماريا، التي لم تزرها في رحلتها السابقة لانها لم تظن بانها ستعجبها، ولكنها فتنت بها حين عرفتها. وكانت مصيبتها، او مصيبة البلدة، انها لم تستطع ان تتذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع، وانما كما كانت تتخيلها قبل ان تعرفها.

قرر الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لاحضارها بعد تلقيه تقرير اسقف ريوهاتشا. فالنتيجة التي استخلصها هي ان زوجته لم تتأخر لانها لاتريد الرجوع وانما لانها لاتجد وسيلة لتجاوز كبريائها. وهكذا مضى الى هناك دون اعلامها، بعد تبادل عدة رسائل مع هيلديبراندا، استخلص منها بوضوح ان حنين زوجته قد انقلب: فهي لاتفكر الان الا ببيتها. كانت فيرمينا داثا في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة صباحا، حين سمعت صرخات عمال المزرعة، وصهيل الخيول، ولعلعة الرصاص في الهواء، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت، وصوت الرجل:

ـ ان يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة اليه.

ظنت انها ستموت من السعادة. ودون ان يتاح لها الوقت للتفكير بالأمر، غسلت يديها كيفما اتفق وهي تهمهم: «حمداً لك يارب، حمدا لك، لكم انت طيب»، مفكرة بانها لم تستحم بعد من الباذنجان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا اعداده دون ان تخبرها من القادم للغداء، ومفكرة بانها قد اصبحت عجوزاً قبيحة، وان وجهها قد سلخته الشمس، مما سيجعله يندم لمجيئه حين يجدها بهذا الحال، اللعنة. لكنها نشفت يديها بالمريلة كيفما اتفق. واستعانت بكل الكبرياء الذي اخرجتها به امها الى الدنيا لتضبط قلبها المتراقص طرباً. ومضت للقاء الرجل بمشيتها الغزلانية العذبة، وبرأسها المرفوع، ونظرتها البراقة، وانفها الحربي، شاكرة للقدر الطمأنينة العظيمة بالعودة الى البيت، رغم ان الامر لن يكون بالسهولة التي تصورها هو حتما، اذ عادت معه وهي سعيدة حقا، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الالام المريرة التي حطمت حياتها.

بعد حوالي سنتين من اختفاء فيرمينا داثا، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة

التي كانت ستعتبرها ترانسيتو اريثا سخرية من سخريات الرب. لم يكن فلورينتينو اريثا قد سمح لنفسه بالانبهار باختراع السينما. لكن ليونا كاسياني حملته دود مقاومة الى حفل الافتتاح الضخم لفيلم كابيريا، الذي كانت شعبيته ترتكز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرييل دانونزيو. كان فناء سينما دون غاليليو داكونتي المكشوف، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم الى روعة الغراميات الصامته على الشاشة، قد غص بالحضور البارزين. كانت ليونا كاسياني تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط. أما فلورينتينو اريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس بتأثير زخم الدراما. ومن خلفه، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر مايفكر به:

ـ رباه، ان هذا أطول من ألم!

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالته، وكظمت نفسها ربما بسبب رنين صوتها في الظلام، اذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الافلام الصامتة بموسيقى البيانو، ولم يكن يسمع في عتمة الصالة سوى ازيز الة العرض الذي يشبه صوت المطر. لم يكن فلورينتينو اريثا يذكر الرب الا في أصعب المواقف، لكنه شكره من اعماق روحه هذه المرة. لانه كان سيتعرف فورا على ذلك الصوت المعدني الرخيم. حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعا تحت التراب، مذ حفظه في روحه مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الاوراق الصفراء في حديقة متوحدة: «انصرف الان، ولاترجع الى ان اطلب اليك». كان يعلم انها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده، الى جانب زوجها دون ريب. وكان يحس بتنفسها الدسم والمحسوب جيداً، وكان يستنشق بحب الهواء المنقى بعافية نفسها الطيب. لم يشعر بانها منخورة بعث الموت، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الاخيرة، وانما تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد، ببطنها المكورة ببذرة ابنها الاول تحت عباءة مينيرفا. تصورها كما لو كان يراها دون أن يلتفت الى الوراء، غير عابىء بالكوارث التاريخية التي كانت تفيض بها الشاشة. كان يتلذذ بأريج عطر اللوز الذي يصله من جسدها، ويتشوق لمعرفة افكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة. وقبيل نهاية الفيلم بقليل، ادرك فجأة بومضة بهجة، انه لم يكن ابداً قريبا بهذا القدر وطوال مثل هذا الوقت ممن احبها حبا جما.

انتظر ان ينهض الاخرون عند اشعال الانوار. ثم وقف على مهل، والتفت متشاغلا بتثبيت ازرار الصدرية التي تفلت دائما خلال عروض السينما، فتقابل الاربعة وجها لوجه بحيث توجب عليهم تبادل التحية، رغم ان احدا منهم ما كان يرغب بذلك. صافح الدكتور خوفينال اوربينو ليونا كاسياني أولا، وكان يعرفها جيدا، ثم شد على يد فلورينتينو اريثا بتهذيبه

المعتاد. وابتسمت لهما فيرمينا داثا ابتسامة مهذبة، ولاشيء سوى انها مهذبة، ولكنها كانت على كل حال ابتسامة شخص رآهما كثيرا، ويعرف من هما، وبالتالي لاحاجة لتقديمهما. وردت عليها ليونا كاسياني بلطفها كخلاسية. أما فلورينتينو اريثا فلم يدر ما يفعل، لأن رؤيتها أذهلته.

لقد كانت امرأة اخرى. لم تكن في وجهها أية علامة من علامات المرض الفظيع الشائع، ولا من أي مرض اخر، وكان جسدها مايزال يحتفظ بوزنه ورقته التي كان عليها في أفضل ازمانه، ولكن لاشك بان السنتين الاخيرتين قد مرتا عليها بثقل عشر سنوات عجاف. كان الشعر القصير مناسبا لها بتلك القصة المائلة على خديها، ولكنه فقد ذلك اللون العسلي السابق وصار بلون الالمنيوم. وفقدت العينان الرمحيتان الجميلتان نصف حياتهما من الضياء وراء نظارة الجدة. رآها فلورينتينو اريثا وهي تبتعد ممسكة بذراع زوجها وسط الحشد الذي يغادر السينما، وفوجيء بانها اتية الى مكان عام بطرحة بائسة وخفٍ من النوع البيتي. ولكن اكثر ما هيج مشاعره هو ان زوجها اضطر لان يشدها من ذراعها ليشير لها الى طريق الخروج، وقد اخطأت رغم ذلك في تقدير الارتفاعات وكادت تسقط عند درج البوابة.

كان فلورنتينو اريثا شديد الحساسية لعثرات الشيخوخة هذه. ففي شبابه كان يقطع قراءاته للاشعار في الحدائق ليراقب ازواج المسنين الذين يساعد احدهما الآخر على عبور الشارع، وكانت تلك دروسا في الحياة قد تضيء امامه قوانين شيخوخته بالذات. لقد كان الرجال، وهم في مثل سن الدكتور خوفينال اوربينو في ليلة السينما تلك، يتفتحون بنوع من الشباب الخريفي، فيبدون اكثر وقارا مع أول الشعرات الشائبة، ويصبحون فاتنين وجذابين، خصوصا في عيون النساء الشابات، بينما تضطر زوجاتهم الذاويات الى التشبث باذرعتهم كي لا يتعثرن بظلالهن ذاتها. ولكن هؤلاء الازواج مايلبثون ان ينزلقوا فجأة، بعد بضع سنوات، الى هوة شيخوخة مرذولة جسدا وروحا، وحينئذ يصبح على زوجاتهم المستقرات اسنادهم من اذرعهم كالعميان الباحثين عن صدقة، والهمس في اذانهم، كي لايجرحن كبرياءهم، بان ينتبهوا جيدا لان عدد الدرجات التي سينزلون ثلاث وليس اثنتين، وان هنالك بركة ماء في وسط الشارع، وان تلك الصرة الملقاة على قارعة الطريق هي جثة شحاذ ميت، ويساعدونهم بمشقة على عبور الشارع وكأنه المخاضة الوحيدة في نهر الحياة الاخير. لقد رأى فلورينتينو اريثا نفسه مرات ومرات في هذه المرآة، حتى انه لم يشعر يوما بالخوف من الموت كخوفه من ارذل العمر حين سيحتاج لامرأة تقوده من ذراعه. اذ كان يعلم انه في ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم فقط، عليه ان يتخلى عن الامل بفيرمينا داثا.

لقد اطار ذلك اللقاء النوم من عينيه. وبدلا من ان يحمل ليونا كاسياني بالعربة، فقد رافقها

مشيا على الاقدام عبر المدينة القديمة، حيث كانت خطواته تقرع بلاط الرصيف كحوافر حصان. وكانت تنطلق بين حين واخر بقايا أصوات هاربة من الشرفات المفتوحة، اومناجيات من مخادع النوم، اونحيب حب تضخمه المسامع الخيالية واريج الياسمين الدافيء في الازقة الهاجعة. وكان على فلورينتنو اريثا ان يستجمع ثانية كل قواه ليمنع نفسه من ان يكشف لليونا كاسياني عن حبه المقهور لفيرمينا داثا. كانا يسيران معاً، بخطواتهما المحسوبة، غارقين في الحب بلا تسرع، كخطيبين قديمين، هي تفكر بروعة كابيريا، وهو يفكر بمحنته الشخصية. وفي ساحة الجمارك كان هناك رجل يغني، وكان صوته يتردد في الجو باصداء متسلسلة: **حين كنت أعبر امواج البحر العظيمة**. وفي شارع لوس سانتوس دي بيدرا، حين كان عليه ان يودعها أمام بيتها، طلب فلورينتينو اريثا من ليونا كاسياني ان تدعوه لتناول كاس من البراندي. كانت تلك هي المرة الثانية التي يطلب منها ذلك في ظروف متشابهة. في المرة الاولى، قبل عشر سنوات، قالت له: «اذا ما صعدت الى بيتي في مثل هذه الساعة فعليك البقاء فيه الى الابد». ولم يصعد يومها. أما الان فكان مستعدا للصعود في جميع الاحوال، حتى لو اضطر الى نقض عهده فيما بعد. لكن ليونا كاسياني دعته للصعود دون أي التزام.

وهكذا وجد نفسه في محراب حب مات قبل ان يولد. كان ابواها قد توفيا، وجمع اخوها الوحيد ثروة طائلة في كوراثاو، وبقيت هي وحدها لتعيش في بيت العائلة. قبل سنوات، وحين لم يكن قد فقد الامل بجعلها عشيقة له، اعتاد فلورينتنينو اريثا زيارتها أيام الاحاد برضى ابويها، وكان يزورها في الليل أحيانا ويبقى حتى ساعة متأخرة، وقد قدم مساهمات كثيرة في عمليات اصلاح البيت حتى صار يعتبره كبيته. ولكنه شعر في تلك الليلة، بعد السينما، بان صالة الاستقبال قد طهرت من ذكرياته. كانت اماكن الاثاث قد تبدلت، وعلقت على الجدران صور جديدة، ففكر بان كل هذه التغيرات القاسية انما اجريت عمداً لتأكيد يقينه بانه لم يكن له من وجود أبدا. كما ان القط لم يتعرف عليه. فقال وقد افزعه نذير النسيان: «ماعاد يذكرني». ولكنها ردت عليه وهي توليه ظهرها فيما كانت تملأ كأسي البراندي، بانه اذا كان قلقا لهذا فبامكانه النوم مطمئنا، لان القطط لاتتذكر أحدا.

وبينما هما متكئان على الاريكة، متلاصقان، تحدثا عن نفسيهما، عما كاناه قبل ان يتعارفا في مساء يوم من يذكر كم مضى عليه في حافلة تقودها البغال. وكانت حياتهما تمضي في مكتبين متجاورين، ولم يتحدثا أبداً من قبل في شيء خلاف العمل اليومي. وفيما هما يتحدثان، وضع فلورينتينو اريثا يده على فخذها وأخذ يداعبها برقة مجربة في الغواية، وتركته يفعل ذلك، ولكن دون ان ترد عليه ولو بمجرد ارتعاشة مجاملة. وحين حاول المضي أبعد من ذلك، امسكت يده المستكشفة وقبلت راحته قائلة:

ـ كن مهذباً. فقد ادركت منذ زمن بعيد بانك لست الرجل الذي أبحث عنه.

ففي صباها، بطحها على حين غرة فوق ملطم الأمواج رجل قوي وبارع، لم تر وجهه أبداً، وعراها ممزقاً ثيابها، ومارس معها حباً عابراً ومجنوناً. وفيما هي ملقاة فوق الاحجار، وجسدها كله مليء بالجروح، تمنت لو يبقى ذلك الرجل فوقها الى الابد، ليموت حباً بين ذراعيها. لم تر وجهه، ولم تسمع صوته، لكنها كانت متأكدة من التعرف عليه بين آلاف الرجال لشكله وحجمه وطريقته في ممارسة الحب. واعتادت منذ ذلك الحين القول لكل من يريد سماعها: «اذا ما عرفت شيئاً في أحد الأيام عن رجل ضخم وقوي اغتصب زنجية بائسة من الشارع فوق صخور سد الغرقى، في يوم كان الخامس عشر من تشرين الأول، حوالي الحادية عشرة والنصف ليلا، فقل له أين يستطيع ان يجدني». كانت تقول ذلك بمحض العادة، وقد كررته كثيراً لدرجة انها فقدت كل أمل. وكان فلورينتينو اريثا قد استمع منها مرات ومرات لهذه القصة كما لو انه يسمع صفارات وداع تطلقها سفينة في الليل. وحين اعلنت الساعة الثالثة صباحاً، كان كل منهما قد شرب ثلاث كؤوس من البراندي، وكان هو يعلم بانه ليس الرجل الذي تبحث عنه حقاً، وسرّ لمعرفته ذلك. وقال لها وهو يستعد للانصراف:

ـ برافو يا ليونا، لقد اجهزنا على هذا النمر.

ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي قضّى تلك الليلة. فاكذوبة سرادق المسلولين الخبيثة عكرت أحلامه، لانها أوحت له بأن فيرمينا داثا هي من البشر، ويمكن ان تفنى، ويمكن بالتالي أن تموت قبل زوجها. ولكنه حين رآها تتعثر عند الخروج من السينما، تقدم خطوة اخرى نحو الهاوية عندما انكشف له بانه قد يكون هو وليس هي من يموت أولا. وكانت تلك من اكثر النبوءات هولا، لانها تستند الى الواقع. لقد انقضت سنوات الانتظار الصابر، والآمال السعيدة، ولم يلح في الافق سوى خضم الامراض المتخيلة الذي لا يسبر له قرار، والتبول قطرة قطرة في صباحات الأرق، والموت اليومي في الظهيرة. وفكر بأن كل لحظة من لحظات اليوم، تلك التي كانت حليفة له في الماضي وشريكة محلفة، بدأت تتآمر ضده. لقد ذهب منذ سنوات قليلة الى موعد غرامي جريء وقلبه مثقل بالخوف من المصادفة، فوجد الباب غير مقفل والمفصلات مزيتة لتوها كي يستطيع الدخول دون اثارة اية ضجة، لكنه احجم في اللحظة الاخيرة مخافة ان يسبب لامرأة غريبة وخدومة الضرر الذي لا سبيل لاصلاحه بموته في سريرها. وهكذا كان معقولا التفكير بأن المرأة التي احبها اكثر من كل ما احبه على وجه الأرض، والتي انتظرها دون تذمر من قرن الى آخر، لن يتاح لها الوقت لاسناده من ذراعه وعبور شارع مليء بحثوات التراب القمرية وجنائن البرقوق التي بعثرتها

الريح، لمساعدته في الوصول سليماً معافى الى الرصيف الآخر للموت.

الحقيقة ان فلورنتينو اريثا، قد دخل وفق معايير عصره حدود الشيخوخة، كان عمره ستاً وخمسين سنة، بالتمام والكمال، وكان يظن بانه عاش أفضل حياة، لان سنوات حياته كانت سنوات حب. ولكن لم يواجه اي رجل من رجال عصره سخرية الظهور بمظهر الشباب وهو في سنه، بينما كان هو كذلك، أو كان يعتقد بأنه كذلك؛ كما لم يكن أي من اولئك الرجال ليتجرأ على الاعتراف دون خجل بأنه ما زال يبكي خفية من أجل صد لقيه في القرن الماضي. لقد كان عصراً سيئاً للظهور بمظهر الشباب: فهناك طريقة معينة في اللباس لكل سن، لكن طريقة سن الشيخوخة في اللبس تبدأ بعد المراهقة بقليل، وتستمر حتى القبر. ولقد كانت هذه المرحلة عبارة عن مرحلة وقار اجتماعي اكثر منها مرحلة حياتية. فالشبان فيها يلبسون مثل اجدادهم، ويصبحون اكثر وقاراً بالنظارات المبكرة، كما كان حمل العكاز امراً مقبولا منذ سن الثلاثين. أما بالنسبة للنساء فلم تكن في حياتهن سوى مرحلتين: سن الزواج، وهو لا يتعدى الثانية والعشرين من العمر؛ وسن العزوبية الابدية: الذي يضم الكاسدات. أما ما سوى ذلك من متزوجات وأمهات وأرامل وجدات، فكن صنفاً مختلفاً من البشر، لا تحسب حياتهن بما يعشنه من سنوات، وانما بالزمن المتبقي أمامهن للموت.

لقد واجه فلورينتينو اريثا غدر الشيخوخة بجسارة شرسة، حتى وهو يعرف قدره الغريب بالظهور بمظهر الشيخوخة منذ طفولته. وقد كان ذلك المظهر وليد الحاجة في أول الأمر، اذ كانت ترانسيتو اريثا تفتق له وتعيد خياطة ملابس ابيه التي يقرر التخلص منها وإلقاءها الى القمامة. وهكذا كان يذهب الى المدرسة الابتدائية بسترة تصل الى الارض عند جلوسه، وقبعة وزارية تغطس في رأسه حتى أذنيه، رغم تضييق اطارها بحشوات من القطن. وبما انه كان يستخدم نظارات لقصر النظر كذلك منذ الخامسة من عمره، وكان له شعر هندي كشعر امه، مزبئر وقاس كشعر جواد، فلم تكن لمظهره اية سمات واضحة. ولحسن الحظ ان المعايير المدرسية كانت أقل انتقائية مما كانت عليه من قبل، وذلك بعد فوضى الحكومات الكثيرة بسبب الحروب الاهلية المفروضة والمتلاحقة. فكانت المدارس العامة تزخر بخليط من الأصول والظروف الاجتماعية المتباينة. كان يأتي الى الدروس صبية تفوح منهم روائح بارود المتاريس، بملابس وشارات ضباط متمردين نالوها بالرصاص في معارك مشكوك فيها، وبأسلحتهم النظامية البادية تماماً على خصورهم. وكانوا يصطدمون فيما بينهم بالرصاص لاي خلاف في الاستراحة، ويهددون المعلمين ان هم اساؤا تقديرهم في الامتحانات، بل ان أحدهم، وهو تلميذ في الصف الثالث بمدرسة لاساليه وكولونيل ميليشيا متقاعد، قتل الاخ خوان اريميتا، رئيس الطائفة، بالرصاص لانه قال في درس أصول الدين ان الرب هو

عضو عامل في الحزب المحافظ.

من جهة اخرى، كان أبناء العائلات الكبيرة المنكوبة يأتون الى المدرسة بملابس امراء قدماء، بينما يسير بعض الفقراء المدقعين حفاة. وبين كل هذه المفارقات الغريبة التي طالت جميع المستويات. كان فلورنتينو اريثا من اشد الحالات غرابة، ولكن ليس الى الحد الذي يلفت اليه الانتباه كثيراً. وكان أقسى ما سمعه هو ان أحدهم صرخ به في الشارع يوماً: «الفقير القبيح تنقضي حياته في التمنيات». وعلى أي حال فان ذلك الزي الذي فرضته الحاجة، كان منذ ذلك الحين، وسيبقى طوال حياته، الاكثر ملاءمة لطبيعته الغامضة ومزاجه الكئيب. وحين وصل الى أول منصب مهم في ش. ك. م. ن.، بعث يطلب تفصيل ثياب جديدة على مقاسه من طراز ملابس ابيه، الذي ما زال يذكره كشيخ توفي عن عمر موقر كعمر المسيح: ثلاث وثلاثون سنة. لقد كان فلورنتينو اريثا يبدو اذن اكبر من سنه الحقيقي بكثير. لدرجة ان النمامة بريجيدا زوليتا، احدى عشيقاته العابرات والتي كانت تقدم له الحقائق دون ان تمر بها في المناء، قالت له منذ اليوم الأول بانه يعجبها اكثر حين يخلع ملابسه، لانه يصغر عشرين سنة وهو عارٍ. ولم يستطع رغم ذلك التوصل الى التوافق أبداً، أولا لان ذوقه الشخصي لا يمكنه من ان يتزيا بطريقة اخرى، وثانياً لان أحداً من أهل ذلك العصر ما كان يعرف كيف له ان يتزيا بزي شاب في العشرين دون ان يُخرج مجدداً من خزانته سراويله القصيرة وقبعة الأولاد. ومن جهة اخرى، لم يكن ممكناً له هو بالذات الهروب من معرفة شيخوخة عصره. وهكذا فقد كاد ان يكون طبيعياً حين رأى فيرمينا دازا تتعثر لدى خروجها من السينما، وامكن لبارقة الذعر ان تبعث القشعريرة فيه لاحساسه بأن الموت العاهر سينتصر عليه بالتأكيد في حرب حبه الضروس.

كانت المعركة التي خاضها عاجزاً حتى ذلك الحين وخسرها دون أمجاد، هي معركته ضد الصلع. فمنذ رأى الشعرات الأولى تعلق بالمشط، ادرك انه محكوم بجحيم لا يمكن لمن لم يعشه تصور عذاباته. قاوم خلال سنوات. لم يدع وصفة أو علاجاً للصلع إلا وجربه، ولا خرافة إلا وآمن بها، ولا تضحية إلا واحتملها ليدافع عن كل بوصة من شعر رأسه في مواجهة الداء النهم. حفظ عن ظهر قلب تعليمات رزنامة بريستول الزراعية، لانه سمع أحدهم يقول ان نمو الشعر مرتبط ارتباطاً مباشراً بدورات المواسم الزراعية. وهجر حلاقه الخاصة الذي كان يقص شعره عنده منذ الازل، لانه كان ذا صلعة مهيبة، واستبدله بحلاق غريب جاء المدينة حديثاً وكان لا يقص الشعر إلا حين يبدأ القمر بالاكتمال. وأخذ الحلاق الجديد يثبت ان يده مُخصِبة حقاً حين كُشف أمره كمغتصب تلميذات غريرات تلاحقه شرطة عدة بلدان انتيلية، وقيد مكبلا بالسلاسل.

كان فلورنتينو اريثا قد قص حتى ذلك الحين جميع الاعلانات الموجهة للصلعان في صحف بلدان حوض الكاريبي، حيث كانوا ينشرون في تلك الاعلانات صورتين متجاورتين للرجل نفسه، الأولى وهو منتوف مثل شمامة، والثانية بشعر أغزر من لبدة أسد: قبل وبعد استخدام الدواء المضمون. وبعد مرور ست سنوات، كان قد جرب مئة واثنين وسبعين دواء، اضافة الى وسائل اخرى مكملة كانت ترد في الوصفة المرفقة بقناني الدواء. لكن الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو نوع من الاكزيما في رأسه، قرحة حارقة ومنتنة، يطلق عليها اولياء المارتينيك الصالحين اسم القرع الشمالي، لان اشعاعاً فسفورياً ينبعث منها في الظلام. وبعد ذلك لجأ الى جميع اصناف الاعشاب التي يروجها الهنود في السوق العام، وجميع الادوية السحرية والاكاسير الشرقية التي تباع في زقاق الكتبة العموميين، وحين ادرك انه ليس سوى ضحية عمليات غش، كانت قرعة كقرعة القديسين قد غزت منتصف رأسه. وفي السنة صفر، عندما كانت حرب الألف يوم الأهلية تستنزف البلاد، مر في المدينة ايطالي يصنع بيروكات من الشعر الطبيعي على المقاس. كانت الواحدة منها تكلف ثروة، ولا يتحمل الصانع أية مسؤولية بعد ثلاث شهور من الاستعمال. ولكن عدداً ضئيلا فقط من الصلعان الموسرين لم يرضخوا للاغراء. وكان فلورنتينو اريثا أحد الأوائل. جرب بيروكة مشابهة تماما لشعره الاصلي، حتى انه خشي من وقوف الشعر مع تبدلات مزاجه. لم لم يستطع استيعاب فكرة حمل شعر انسان ميت على رأسه. وكان عزاؤه الوحيد ان شراهة الصلع لم تتح له التعرف على لون شعراته الشائبات. وفي يوم من الأيام عانقه أحد سكارى الميناء النهري السعداء بعاطفة متدفقة اكثر من المعتاد وهو خارج من المكتب، فافلتت الباروكة أمام سخرية عمال الشحن، وطبع السكران قبلة مدوية على رأسه وهو يصرخ:

- صلعة ربانية!

في تلك الليلة بالذات، وكان قد بلغ الثامنة والاربعين من العمر، حلق الشعيرات القليلة المتبقية على الصدغين والرقبة، واستسلم تماماً لمصيره كأصلع مطلق. بل انه لم يعد يطلي صباح كل يوم قبل الحمام ذقنه وحدها بالرغوة، وانما كذلك اجزاء من رأسه حيث يجد ان بعض الشعر آخذ بالظهور، فيجعلها بموس الحلاقة مثل إلية طفل رضيع. لم يكن ينزع القبعة حينئذ حتى ولو في المكتب، اذ كانت الصلعة تثير فيه شعوراً بالعري يبدو له غير وقور. ولكنه حين اعتاد عليها تماماً، نسب اليها فضائل ذكورية كان قد سمع بها، وكان يزدريها من قبل على انها مجرد اوهام من الصلعان. ثم انتقل فيما بعد الى العادة الجديدة باستخدام شعر المفرق الأيمن الطويل لتغطية الصلعة، ولم يتخل عنها ابداً. ولكنه استمر في استخدام القبعة وهو على هذا الحال، بالطريقة الجنائزية ذاتها، حتى بعد ان شاعت قبعة تارتاريتا، وهو

الاسم المحلي لقبعة كانوتيه.

أما فقدانه اسنانه فلم يكن نتيجة بلوى طبيعية، وانما نتيجة عمل غير متقن قام به طبيب أسنان متجول رأى انه لا بد من نزع الاسنان اثر التهاب عادي. كان الرعب من آلة ثقب الاسنان قد منع فلورنتينو اريثا من زيارة طبيب الاسنان رغم آلام اضراسه المستمرة، إلى ان فقد القدرة على الاحتمال. وقد فزعت امه حين سمعت أنينه في الغرفة المجاورة طوال الليل، اذ بدت لها كتأوهاته في زمن آخر شبه مطموس في ضباب ذاكرتها، ولكنها حين طلبت منه ان يفتح فمه لترى أين هو ألم الحب، اكتشفت ان ما يضنيه هي الخراجات والدمامل الصغيرة.

أرسله العم ليون الثاني عشر الى الدكتور فرانسيس ادوناي، وهو مارد زنجي يلبس سروالا خاصاً بركوب الخيل، ويتنقل في السفن النهرية حاملا عيادته السنية كلها في اكياس، فيبدو أشبه بمندوب متجول للرعب في قرى النهر. وبعد نظرة واحدة الى فم فلورنتينو اريثا، قرر انه لا بد من نزع اسنانه كلها، بما في ذلك الاسنان والاضراس السليمة، لانقاذه الى الابد من محن اخرى. وعلى العكس من الصلعة، لم يسبب له هذا الاعلاج الحماري اي نوع من القلق، باستثناء خوفه الطبيعي من المجزرة دون مخدر. كما لم تزعجه فكرة الاسنان الاصطناعية، أولا لان احدى ذكريات طفولته التي يحن اليها هي ذكرى ساحر رآه في مهرجان وكان ينزع فكيه ويضعهما على طاولة ليتكلما بمفردهما، وثانياً لانه سيضع حداً لآلام الاضراس التي عذبته منذ طفولته، وهي آلام تكاد تشبه بقسوتها آلام الحب. لم ير في الأمر ضربة غادرة من ضربات الشيخوخة، كما رأى في الصلعة، اذ كان مقتنعاً، رغم طعم المطاط المكبرت، بان مظهره سيكون اجمل بابتسامة قويمة. وهكذا سلم نفسه دون مقاومة لكماشة الدكتور ادوناي المضمخة بالدم، واحتمل آلام العلاج بصبر كصبر حمير العتالة.

اهتم العم ليون الثاني عشر بتفاصيل العملية كما لو كانت تُجرى له بالذات. فقد كان يولي الاسنان الاصطناعية اهتماماً خاصاً اثر احدى رحلاته الاولى في نهر مجدلينا، وبسبب هوسه بالغناء الجميل. ففي احدى الليالي المقمرة، وقريباً من ميناء غامارا، راهن مساح اراض ألماني بانه قادر على ايقاظ مخلوقات الغابة بغنائه رومنس نابولي من فوق شرفة القبطان. وكاد ان يكسب الرهان. اذ انطلقت في عتمة النهر خفقات اجنحة طيور مالك الحزين في المستنقعات، وضرب ذيول التماسيح، وانفاس اسماك الشابل وهي تحاول القفز الى اليابسة، ولكنه حين وصل القفلة الختامية، وحين خشي المجتمعون من تمزق شرايين المغني لقوة صوته، افلت طقم الاسنان الاصطناعية من فمه مع النفس الاخير، وغرق في الماء.

وقد اضطرت السفينة للانتظار ثلاثة ايام في ميناء تينير يفي، ريثما صنعوا له مجموعة اسنان طوارئ جديدة. وقد كانت هذه الاسنان الجديدة متقنة. ولكنه في رحلة العودة، واثناء

محاولته ان يشرح للقبطان كيف أضاع طقم اسنانه السابق، استنشق العم ليون الثاني عشر ملء رئتيه هواء الغابة الملتهب، وصدح بأعلى لحن يستطيعه، واحتفظ به حتى النفس الاخير محاولا افزاع التماسيح الجاثمة تحت الشمس متأملة مرور السفينة دون ان يطرف لها رمش، فغرق طقم الاسنان الجديد في مجرى النهر ايضاً. ومنذ ذلك الحين وضع نسخاً من الاسنان الاصطناعية في كل مكان، وفي عدة أماكن بالبيت، وفي درج مكتبه، كما وضع طقماً في كل سفينة من سفن الشركة الثلاث. واضافة الى ذلك، صار يحمل معه كلما ذهب لتناول الطعام خارج المنزل، طقماً اضافياً يضعه في علبة لاقراص السعال في جيبه، وذلك لان اسنانه الاصطناعية كُسرت يوماً وهو يحاول أكل قطعة من شحم الخنزير المقدد في غداء ريفي. وخشية ان يقع ابن اخيه ضحية مفاجآت من هذا النوع، أمر العم ليون الثاني عشر الدكتور ادوناي بأن يصنع له مجموعتين من الاسنان: احداهما من مواد عادية، للاستخدام اليومي في المكتب، واخرى لايام الآحاد والاعياد، مزودة بلمعة ذهبية في ضرس الابتسامة، مما منحها لمسة اضافية حقاً. واخيراً، رجع فلورنتينو اريثا، في يوم أحد يضج بنواقيس العيد، الى شارعه بهوية جديدة، وجعلته ابتسامته الصائبة يشعر بأن شخصاً آخر قد احتل مكانه في الدنيا.

حدث هذا في الحقبة التي ماتت فيها امه وبقي فلورنتينو اريثا وحده في البيت الذي كان ركنا مناسباً لغرامياته، اذ ان شارعه يكتم الاسرار رغم ان النوافذ الكثيرة التي تمنحه الاسم توحي بوجود عيون تتلصص من وراء الستائر. ولكن كل ما في هذا البيت انما صنع لاسعاد فيرمينا داثا، وسيكون لها وحدها. وهكذا فضل فلورنتينو اريثا تبديد فرص كثيرة خلال اكثر سنواته إثماراً، على ان يدنس بيته بغراميات اخرى. ولحسن الحظ ان كل درجة كان يرتقيها في مناصب ش. ك. م. ن.، كانت تعني امتيازات جديدة، ومكاسب سرية على وجه الخصوص، واكثر هذه الامتيازات فائدة بالنسبة اليه كانت امكانية استخدامه المكاتب خلال الليل، وفي أيام الآحاد والعطل، بالاتفاق مع البوابين. وفي احدى المرات، حين كان نائباً أول للرئيس، فُتح باب مكتبه بغتة بينما كان يمارس حباً مستعجلاً مع احدى الفتيات اللواتي يعملن ايام الآحاد، وكان جالساً على الكرسي فيما هي رابضة في حضنه، وبعد فتح الباب، أطل العم ليون الثاني عشر برأسه، كما لو انه أخطأ في المكتب، ووقف يتأمل من فوق نظارته ابن اخيه المرتبك. ثم قال العم دون اي قدر من الدهشة: «كراخو! انها لعنة ابيك نفسها!».

وقبل ان يغلق الباب ثانية، قال ونظره تائه في الفراغ:

- وأنت أيتها الانسة، تابعي بلا خوف. أقسم لك بشرفي انني لم أر وجهك.

لم يعد للحديث في هذا الأمر. ولكن العمل كان مستحيلاً في مكتب فلورنتينو اريثا خلال

الاسبوع التالي. فقد دخل الكهربائيون يوم الاثنين بجلبة لتركيب مروحة ذات رياش في السقف الاملس، واتى صانعو الاقفال دون انذار مسبق، واثاروا ضجة حرب وهو يثبتون مزلاجاً في الباب لاغلاقه من الداخل. وأخذ النجارون مقاسات دون ان يقولوا لماذا، وجاء المنجدون بنماذج من قماش الكريتون ليروا ان كانت تتناسب مع لون الجدران، وكان عليهم في الاسبوع التالي ان يستخدموا النافذة، لأن الابواب لم تتسع لادخال اريكة مزدوجة مزينة برسوم ازهار. اشتغلوا في ساعات لا تخطر على بال، بوقاحة لا تبدو انها مصادفة، وكانوا يرددون على كل من يعترض بالقول: «انها اوامر الادارة العامة». لم يعلم فلورينتينو اريثا ابداً ان كان هذا التدخل لطفاً من العم، الساهر على غرامياته الضالة، ام انه اسلوب خاص به للفت انتباهه إلى سوء سلوكه في استخدام صلاحياته. ولم يتبين حقيقة ان العم ليون الثاني عشر كان يشجعه، فقد وصلت إلى مسامعه كذلك انباء تقول ان لابن اخيه عادات مختلفة عن عادات معظم الرجال، وقد اقلقه ذلك لانه رأى فيه عائقاً امام تعيينه خليفة له.

لقد عاش ليون الثاني عشر لوايشا، على عكس اخيه، حياة زوجية مستقرة، استمرت ستين سنة، وكان يفاخر دوماً بانه لا يشتغل أيام الآحاد. وقد انجب أربعة ابناء وابنة واحدة، وكان يريد اعدادهم جميعاً ليرثوا عنه امبراطوريته، ولكن الحياة أعدت له واحدة من هذه المصادفات التي كانت شائعة في روايات عصره، والتي لم يكن هناك من يؤمن بوجودها في الحياة الواقعية: لقد مات الابناء الاربعة، واحداً بعد الاخر، وبعد وصولهم إلى مناصب المسؤولية. أما الابنة، التي لا تتمتع بأية ميول نهرية، ففضلت الموت وهي تتأمل مراكب هدسون من نافذة على ارتفاع خمسين متراً. فوُجد هناك بعد كل هذه الميتات من يؤمن باسطورة ان فلورينتينو اريثا، بمظهره المشؤوم ومظلته التي كمظلة مصاصي الدماء، قد فعل شيئاً لتحدث كل هذه المصادفات معاً.

وعندما تقاعد العم عن العمل مكرهاً، بأمر طبي، ضحى فلورينتينو اريثا راضياً ببعض غرامياته في ايام الآحاد ليرافق العم إلى ملجأه الريفي في سيارة من السيارات الأولى التي شوهدت في المدينة، والتي كانت ذراع ادارة محركها قوية الارتداد لدرجة انها انتزعت ذارع سائقها الأول. كانا يتحادثان لساعات طويلة فيما العجوز مستلق في ارجوحة نومه المطرز عليها اسمه بخيوط حريرية، بعيداً عن كل شيء، في مزرعة عبيد قديمة كانت تظهر من مصاطبها المشرفة مساء قمم سلسلة الجبال المكللة بالثلج. كان يصعب على فلورينتينو اريثا وعمه الخوض في حديث آخر سوى الملاحة النهرية، وبقي هذا هو موضوع تلك المسامرات الطويلة، حيث كان الموت دوماً ضيفاً لامرئياً. لقد كانت احدى مشاغل العم ليون الثاني عشر هي الحيلولة دون انتقال الملاحة النهرية إلى ايدي رجال اعمال من اقاليم الداخل الذين

يرتبطون بالاحتكارات الاوربية. وكان يقول: «لقد كان هذا العمل دوماً هو عمل الماتاكونغيين. اما اذا تولاه الداخليون فسيهدونه ثانية الى الألمان». وكان قلقه ناجماً عن قناعة سياسية يحب تكرارها بمناسبة وبلا مناسبة:

ـ أكاد أكمل مئة سنة، وقد رأيت كل شيء يتغير، بما في ذلك مواقع الكواكب في الكون، ولكنني لم أر حتى الآن شيئاً يتغير في هذه البلاد. فهنا توجد دساتير جديدة، وقوانين جديدة، وحروب جديدة كل ثلاثة شهور، لكننا ما زلنا نعيش في العهد الاستعماري.

وكان يرد دائماً على أخويه الماسونيين اللذين يعزوان كل الشرور إلى فشل الاتحادية: «لقد كانت حرب الألف يوم خاسرة قبل اندلاعها بعشرين سنة.. منذ حرب ٧٦». وكان فلورينتينو اريثا، الذي تتجاوز لامبالاته السياسية حدود المطلق، يستمع الى هذا الكلام الطويل المكرور كمن يستمع إلى صوت البحر. ولكنه كان بالمقابل نقيضاً صارماً فيما يتعلق بسياسة الشركة. اذ كان يرى، على العكس من عمه، بان تخلف الملاحة النهرية، التي تبدو دائماً على شفير الكارثة، لا يمكن معالجته إلا بالتخلي التلقائي عن احتكار الملاحة النهرية الذي منحه الكونغرس الوطني لشركة الكاريبي لمدة تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد. وكان العم يعترض: «هذه الافكار تحشوها في رأسك سميَّتي ليونا المولعة بالفوضوية». وكان هذا هو نصف الحقيقة فقط، اذ كانت مبررات فلورينتينو اريثا تستند إلى تجربة الربان الألماني جون ب. البيرس، الذي أفسد بطموحه الشخصي المفرط نبوغه النبيل. أما العم ليون فكان يرى ان فشل البيرس لم يكن بسبب امتيازاته. وانما نتيجة التعهدات اللاواقعية التي التزم بها في حينه، فكان كمن يلقي على كاهله مسؤولية الجغرافية الوطنية باسرها: فقد تحمل مسؤولية الحفاظ على الملاحة النهرية، وبناء المنشآت المرفأية، والطرق البرية المؤدية إلى الموانىء، ووسائط النقل. أضف إلى ذلك ـ كان يقول ـ ان معارضة الرئيس سيمون بوليفار الشديدة لم تكن بالعائق الذي يبعث على الضحك.

كان معظم المساهمين في الشركة يرون في ذلك الخلاف كواحد من الخلافات الزوجية، حيث كلا الجانبين على حق. فعناد الشيخ يبدو لهم طبيعياً، ليس لان الشيخوخة جعلته أقل وهماً مما كان عليه دوماً، كما اعتاد القول عن نفسه بسهولة كبيرة وانما لان التخلي عن الاحتكار برأيه هو إلقاء إلى القمامة بمكاسب النصر الذي تحقق في معركة تاريخية خاضها واخواه منفردين في الازمنة البطولية، ضد خصوم جبارين من العالم باسره. ولهذا لم يعارضه أحد حين ربط حقوقه بطريقة لا تتيح لأحد المس بها قبل غيابه القانوني. ولكن حين سلم فلورينتينو اريثا اسلحته في مسامرات التأمل في المزرعة، ابدى العم ليون الثاني عشر موافقته في التخلي عن الامتياز المئوي، بشرط مشرف وحيد هو ألا يتم التنازل قبل وفاته.

كان هذا هو عمله الاخير. ولم يعد بعده للحديث في شؤوون العمل، بل انه لم يعد يسمح لهم بان يستشيروه فيه. ولم يفقد تجعيدة واحدة من تجاعيد رأسه الامبراطوري، ولا ذرة واحدة من وضوحه، لكنه فعل كل ما امكنه حتى لا يبدو عليه شيء يثير الشفقة. كانت ايامه تمضي وهو يتأمل الثلوج الدائمة من شرفتة، محركاً كرسيه الفينيّ الهزاز ببطء، إلى جانب طاولة صغيرة تحرص الخادمات على وجود ابريق قهوة مرة ساخنة عليها دوماً ومجموعتين من اسنانه الاصطناعية التي ما عاد يستخدمها إلا لاستقبال الزيارات. كان يلتقي عدداً محدوداً من الاصدقاء، ولا يتحدث معه إلا عن ماض سحيق جداً وسابق للملاحة النهرية. ولكن بقي له مع ذلك موضوع جديد للحديث: رغبته بزواج فلورينتينو اريثا. وقد عبر عن ذلك عدة مرات، وبالطريقة ذاتها دوماً.

كان يقول له:

ـ لو انني كنت أصغر بخمسين سنة لتزوجت من سَمِيَّتي ليونا. فأنا لا استطيع تصور زوجة أفضل منها.

كان فلورينتينو اريثا يرتعش لخوفه من ان يضيع كل ما عمله خلال سنوات طويلة بهذا الشرط الطارىء في اللحظة الاخيرة. لكنه كان يفضل الاستقالة، والتخلي عن كل شيء، والموت، قبل ان يخلف وعده لفيرمينا داثا. ولحسن الحظ ان العم ليون الثاني عشر لم يصر في طلبه. وحين اتم الثانية والتسعين من العمر، اعترف بابن اخيه وريثاً وحيداً وتقاعد من الشركة.

بعد ذلك بستة شهور، وباجماع المساهمين، عُيّن فلورينتينو اريثا رئيساً لمجلس الادارة ومديراً عاماً للشركة. ويوم تولى مهام منصبه، بعد تناول الشمبانيا، طلب العجوز ليون المتقاعد السماح له بالحديث وهو جالس على الكرسي الهزاز، وارتجل خطبة قصيرة بدت اشبه بمرثية. قال ان حياته بدأت وانتهت بحدثين صادرين عن العناية الالهية. الحدث الأول هو ان بطل التحرير حمله بين ذراعيه، في بلدة توربـاكو، اثناء رحلته المشؤومة التي قادته إلى الموت. والحدث الثاني كان عثوره، رغم كل العوائق التي فرضها القدر، على خليفة جدير بالشركة. واخيراً، في محاولة لنزع المأساوية من المأساة، اختتم حديثه قائلاً:

ـ المرارة الوحيدة التي احملها من هذه الحياة هي انني غنيت في جنازات كثيرة، باستثناء جنازتي.

ولا ختتام الاحتفال، وكيف لا، غنى منفرداً اغنية وداعاً للحياة، من اوبريت توسكا. غناها بلحن كنائسي، كما يجب ان يغنيها، وبصوت ما يزال ثابتاً. لقد تأثر فلورينتينو اريثا، لكنه لم يكد يُظهر ذلك في ارتعاشة صوته حين القى كلمة شكر. مثلما فعل وفكر بكل ما فعله

وفكر به في الحياة. لقد وصل إلى القمة دون هدف سوى قراره الشرس بالبقاء حياً وفي حالة صحية جيدة لحظة توليه مصيره في ظل فيرمينا داثا.

ولكن لم تكن ذكراها وحدها هي التي رافقته تلك الليلة في الحفلة التي دعت اليها نيونا كسياني. بل رافقته كذلك ذكرى جميع من عرفهن. سواء من يرقدن في المقابر، مفكرات به من خلال الزهور التي زرعها فوقهن، أو اولئك اللواتي ما زلن يسندن رؤوسهن على الوسادة ذاتها التي نام عليها ازواجهن بقرون مذهبة تحت ضوء القمر. وباستثناء واحدة منهن، كان يرغب بان يكون معهن جميعاً في وقت واحد، وهو ما كان يخشاه دائماً. ففي أصعب سنوات حياته، وأقسى لحظاته، احتفظ بعلاقة ما، وان كانت واهية، مع عشيقاته اللواتي لاحصر لهن: لقد تابع دائماً خيط حياتهن.

تذكر في تلك الليلة روساليا، أقدمهن جميعاً، التي فضت عذريته وما زالت ذكراها تعذبه كما عذبته في اليوم الأول. كان يكتفي باغماض عينيه ليراها بفستان الموسلين والقبعة ذات شرائط الحرير الطويلة وهي تهز قفص الطفل عند حافة السفينة. وكان قد أعد عدة كل شيء مرات عديدة في سنوات حياته الطويلة للانطلاق في البحث عنها دون ان يعرف أين، ودون ان يعرف ما هو لقبها، ودون ان يعرف ان كانت هي حقاً من يبحث عنها، ولكنه كان متأكداً من انه سيجدها في أي مكان ما بين ازهار السلحبيات. وفي كل مرة، بفعل عائق حقيقي يطرأ في اللحظة الاخيرة، او بفعل خلل خارج عن ارادته، كانت الرحلة تتأجل وهو على وشك ان يرفع جسر السفينة: وقد كانت للاسباب دوماً علاقة ما بفيرمينا داثا.

تذكر ارملة ناثاريت، الوحيدة التي دنس معها بيت أمه في شارع لاس فينتاناس، رغم انه لم يكن هو، وانما ترانسيتو اريثا، من سمح لها بالدخول. ولقد كرس لها تفهماً اكثر من أي واحدة سواها، لانها الوحيدة التي كانت تشع حناناً يكفي لاحلالها محل فيرمينا داثا، رغم بلادتها في الفراش. لكن ميولها كقطة منشردة، وغير مروضة، تفوقت على قوة حنانها وحكمت عليها بالخيانة. ومع ذلك، فقد اصبحا عاشقين متقطعين خلال ما يقرب من ثلاثين سنة بفضل شعاره الفروسي: خائنان، ولكن غير مخادعين. وكانت هي الوحيدة كذلك التي كشف فلورينتينو عن وجهه الحقيقي من اجلها: فحين وصله خبر موتها، وعلم انها ستدفن في مدافن الاحسان، تكفل بدفنها على نفقته، وكان الوحيد الذي حضر جنازتها.

تذكر أرامل اخريات محبوبات. بروديثيا بيترلى أقدم اللواتي ما زلن على قيد الحياة، والمعروفة للجميع باسم ارملة الرب، لانها ترملت مرتين. وتذكر بروديثيا الاخرى، ارملة اربيانو المتيمة بحبه، والتي كانت تقطع ازرار ملابسه ليضطر للبقاء في بيتها ريثما تعيد

اصلاحهـا. وخوسيفا، ارملة زونيغا، المجنونة بحبه، والتي كادت تقص عضوه بالمقص وهو نائم، كي لا يكون لأحد سواها.

تذكر انخيلس الفـارو، التي غابت سريعـاً وكـانت احبهن اليه، اذ جاءت لمدة ستة اشهر لتعليم موسيقى الآلات الوتـرية في مدرسة الموسيقى، وكانت تقضي معه الليالي المقمرة على سطح بيتها، كما قذفت بها امها الى الدنيا، عازفة أجمل المقطوعات الموسيقية على البيـولـونتشيلو[1]، الـذي يتحول صوته إلى صوت انسان بين فخذيها الذهبيين. ومنذ الليلة المقمـرة الأولى، تفتت قلبـاهما ارباً بحب مبتدئين شرسين. لكن انخيلس الفارو مضت مثلما جاءت، بعضوها الغض وآلتها الموسيقية، في سفينة ترفع راية النسيان، والشيء الوحيد الذي بقي منها في ليـالي السطـح المقمـرة هو تلويحـة وداعهـا بمنديل أبيض بدا وكأنه حمامة متوحدة وحزينة في الافق، كما في أشعـار مهرجان الزهور. لقد تعلم فلورينتينو اريثا معها ما كان قد عاناه كثيراً دون ان يدرك كنهه: وهو انه بوسع المرء ان يعشق عدة اشخاص في الوقت نفسه، ويتألم الألم ذاته لهم جميعاً، دون خيانة أي منهم. وفيما هو يقف وحيداً وسط الجموع في الميناء، قال غاضباً: «ان في القلب حجرات اكثر مما في فنـدق للعـاهرات». كان مبللاً بدموع آلام الوداع. ولكن ما ان اختفت السفينة عند خط الافق، حتى عادت ذكرى فيرمينا داثا لتشغل الفراغ كله.

تذكر انـدريـه بارون، التي مر من أمـام بيتهـا الاسبوع الماضي، ونبهه الضوء البرتقالي المنبعث من نافذة الحمام إلى انه لا يستطيع الدخول: لقد سبقه أحدهم. أحدهم. رجل أو امرأة، لان انـدريـه بارون لم تكن لتتوقف عند ترهات من هذا النوع في فوضى الحب. وبين جميع من هن في قائمته، كانت هي الوحيدة التي تعيش من جسدها، ولكنها كانت تتحكم به حسب رغبتهـا، دون وكيـل أعمال. في سنواتها الطيبة مارست المهنة القديمة كمومس سرية، مما جعلهـا جديرة باسم سيدتنا قديسة الجميع. لقد فتنت حكاماً وامراء بحر. ورأت بعض نبلاء السلاح والادب ممن لم يكونوا مشهورين كما كانوا يظنون انفسهم، يبكون على كتفها، وكـذلـك بعض من كانوا مشهورين حقاً. كما كان صحيحاً ان الرئيس رافائيل رييس، وبعد نصف الساعة المستعجلة التي امضاها في زيارته للمدينة خصص لها راتباً تقاعدياً مدى الحياة لقاء خدمات قدمتها في وزارة الخزينة، حيث لم تكن يوماً موظفة. لقد كانت توزع عطايا متعتها إلى اقصى ما أتـاحـه لها الجسد، ورغم ان سلوكها غير اللائق كان معروفاً للجميع، فانه لم يكن بامكـان أحد تقـديم أدلـة دامغـة ضدها، لان زبائنها البارزين كانوا يحمونها كما

(١) آلة موسيقية وترية شائعة الاستخدام في كولومبيا.

يحمـون انفسهم، مدركـين انهم هم وليس هي من سيخسر اكثر بالفضيحة. وقد خرق فلورينتينو اريثا من أجلها مبدأه المقدس بعدم الدفع، وخرقت هي قانونها بألا تمارس الحب مجاناً حتى ولو مع الزوج. اذ اتفقا على سعر رمزي هو بيزو واحد عن كل مرة، لكنها لم تكن تأخذ البيزو وكما لم يكن هو يعطيهـا اياه في يدهـا، وانما كان يُسقطه في الحصالة إلى ان يصل المبلغ الى ما يكفي لشراء أية بدعـة من زقاق الكتبة العموميين. وهي التي عزت إلى الحقن الشرجيـة التي يستخدمهـا في إمسـاكه، حسبـة مختلفة في الحب، واقنعته بصواب فكرتها، ليستخدما الحقن الشرجية معاً في امسياتها المجنونه، محاولين بذلك ابتداع مزيد من الحب في الحب.

كان يرى نفسـه محظـوظاً، لان الـوحيـدة التي اذاقتـه قطرة مرارة وسط كل هذه اللقاءات الخطـرة، هي سارا نوريغـا المتقلبـة، التي انهت حياتها في مشفى الراعية الالهية للمجاذيب، ملقية اشعاراً شيخوخية بذاءتها تتجاوز كل الحدود، مما اضطرهم في المشفى إلى عزلها حتى لا تسبب الجنون للمجنونـات الاخريـات. وحين تسلم فلورينتينو اريثا كامل مسؤوليات ش. ك. م. ن. لم يعد لديه متسع كبير من الوقت لمحاولة احلال أحد محل فيرمينا داثا: كان قد أوقن بانهـا عصيـة على الاستبدال. وراح يهوي شيئاً فشيئاً في روتين زياراته لمن يعرفهن، ليضاجعهن إلى المدى الذي تستطعنه، وإلى حيث يستطيع، وإلى حيث تسمح لهم الحياة، وفي يوم أحد العنصرة، حين مات خوفينال اوربينو، لم تكن قد بقيت له سوى واحدة، واحدة فقط، لها أربعة عشر عاماً من العمر اكملتها لتوها، وتتمتع بكل ما لم تمتلكه الاخريات حتى ذلك الحين لجعله يجن حباً.

اسمهـا اميركـا فيكونيـا. وكانت قد جاءت قبل سنتين من بلدة بويرتو بادري البحرية، مبعـوثـة من أهلهـا إلى فلورينتينـو اريثـا، ولي امرهـا الذي تربطهم به صلة قربى معروفة. جاءت بمنحـة حكـومية لتتأهـل كمعلمة، وبدت كدمية حين وصولها بصرة سفرها وحقيبتها الصفيحيـة. ومنـذ نزولها من السفينة بحذائها الأبيض وضفيرتها الذهبية، خطرت له الفكرة الفظيعـة بانهـما سيقضيـان معاً قيلولات آحاد كثيرة. كانت ما تزال طفلة بكل ما في ذلك من معنى، القلح في اسنانهـا، وقـروح المدرسة الابتدائية في ركبتيها، لكنه تخيل فوراً المرأة التي ستصيـرها عما قريب. فرعـاهـا لنفسه خلال سنة بطيئة من سبوت في السيرك، وآحاد في الحدائق ومحلات المثلجات، وأمسيات طفولية نال بها ثقتها، وكسب ودها، وراح يقودها من يدهـا برقـة خبيثـة كجد كريم إلى مسلخه السري. وكانت استجاباتها فورية: لقد فتحت لها أبـواب السمـاء فانفجرت في تفتح وردي جعلها تفيض سعـادة، وكـان ذلـك دافعاً ناجحاً لدراستها، اذ احتفظت دوماً بالموقع الأول في الفصل كي لا تخسر الخروج من المدرسة في نهاية

الاسبوع. وكانت بالنسبة له الركن الاكثر خفاء في خليج شيخوخته. فبعد سنوات طويلة من الغراميات المحبوسة، احس لمذاق البراءة المفسدة فتنة ضلال مستجد.

انسجـا. كانت تتصرف على سجيتهـا: طفلة متأهبـة لاستكشـاف الحياة تحت اشراف رجـل موقـر لا يفـاجأ بشيء، وتصرف وهـوواع بالشكـل الذي كان يخشى ان يصير اليه في الحيـاة: خطيب شائخ. ولم يطـابق بينهـا وبـين فيرمينا داثا أبداً، رغم التشابه الكبير بينهما، وليس في السن، والزي المدرسي، والضفيرة، والمشية البرية فقط، بل وبالطبع المتكبر وغير المتوقـع. ثم ان فكـرة الاستبدال، التي كانت حافزاً جيداً له في استعطاء الحب من قبل، قد تلاشت نهائياً من ذهنه. انها تعجبه كما هي، ويحبها لما هي عليه بحمى لذة غسقية. وكانت الوحيدة التي اتخذ معها احتياطات صارمة للحيولة دون حبل عرضي. وبعد بضعة لقاءات، لم يعد لكليهما من حلم سوى مساء الآحاد.

بما انـه الشخص الـوحيـد المخـول باخراجها من المدرسة الداخلية، فقد كان يذهب بحثاً عنها في سيارة الهدسون ذات الستة سلندرات التابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وكان ينـزع غطـاء السيـارة القـماشي في بعض الامسيات غير المشمسة ليتنزها على الشاطىء، هو بقبعته الكئيبة، وهي منفجرة بالضحك، وممسكة بكلتا يديها قبعتها البحرية التي تشكل جزءاً من زيها المدرسي، كي لا تطير مع الريح. لقد قال لها أحدهم يوماً ألا ترافق ولي امرها اكثر من الـلازم، وألا تأكـل شيئـاً كان قد تذوقـه وألا تقـترب كثـيراً من انفاسه، لان الشيخوخة معدية. لكنها لم تول ذلك اهتماماً. كلاهما كان يبدي لا مبالاته لما يمكن للناس ان يظنوه بهما، لان قرابتهما كانت معروفة جيداً، ثم ان سنيهما النقيضين يضعانهما بمنأى عن كل الشبهات.

كانـا قد انتهيـا من ممارسـة الحب يوم أحـد العنصرة، في الرابعة بعد الظهر، حين بدأ قرع النـواقيس. وقـد فوجيء فلورينتينـو اريثا لفزع قلبه. فقرع النواقيس كان يدخل ـ في شبابه ـ ضمن تكـاليف الجنـازة، وكـان يحظر على الفقـراء فقـط. وبعـد حربنا الاخيرة، في الجسر الواصل بين القرنين، رسخ النظام المحافظ تقاليده الموروثة من العهد الاستعماري وأصبحت الأبهة الجنائزية مكلفة بحيث لم يعد هناك من هوقادر على دفعها سوى اغنى الاغنياء. وحين توفي الاسقف اركـولي دي لونـا، قرعت نواقيس المقـاطعـة كلهـا لتسعـة أيام بلياليها، وبلغ الضيق العـام حداً دفـع خليفتـه إلى الغـاء تقليـد قرع اجـراس الكنائس في المآتم، وحصره بالموتى البـارزين. ولـذلك حين سمع فلورينتينو اريثا قرع النواقيس في الكتدرائية في الرابعة من مساء يوم أحد العنصرة، أحس ان شبحاً من أيام شبابه المنسية يزوره. لم يتصور مطلقاً ان قرع النـواقيس هذا هو الـذي تشـوق اليـه لسنوات وسنـوات، منذ يوم الأحد الذي رأى فيه فيرمينا داثا تخرج من القداس الكبير وهي حبلى في الشهر السادس.

قال في العتمة:

ـ اللعنة. لا بد انه حوت سمين كي تقرع من اجله اجراس الكتدرائية.

أما اميركا فيكونيا، التي استيقظت لتوها، عارية تماماً، فقالت:

ـ لا شك انها من أجل العنصرة.

لم يكن فلورينتينـو اريثا خبيراً أوما شابـه ذلك في شؤون الكنيسة، كما انه لم يذهب الى الصلاة مذ كان يعزف الكمان في الكورس مع ألماني علمه كذلك علم التلغراف، ولم يتوصل الى خبر مؤكد عن مصيره أبداً. لكنه كان يعرف دون شك ان النواقيس ما كانت من اجل العنصـرة. صحيـح ان في المـدينـة مأتمـاً، وهـويعـرف ذلـك؛ اذ زارت بيتـه لجنة من لاجئي الكـاريبي لتخبـره ان جيرميـا دي سانت ـ آمـور قد وجـد ميتـاً في معمـل تصـويره. ومع ان فلورينتينـو اريثـا لم يكن من اصـدقـائـه المقربين، إلا انه كان صديقاً لعدد كبير من اللاجئين الـذين اعتـادوا على دعوته إلى مناسباتهم العامة، وخصوصاً المآتم. لكنه كان متأكداً من ان الاجـراس لا تقـرع لجيرميـا دي سـانت ـ آمـور، الـذي كان ملحداً مصمماً وفوضوياً متمادياً، اضافة إلى انه قتل نفسه بيده.

قال:

ـ لا. ان قرع أجراس كهذا لا يمكن ان يكون إلا من أجل حاكم فما فوق.

لم تكن اميركا فيكونيا، بجسدها الشاحب المرقط بفعل انعكاس اشعة الضوء المتسربة من ابـاجـور النـافذة المغلقة، قد بلغت سناً يمكنها من التفكير بالموت. كانا قد مارسا الحب بعد الغـداء واضطجعـا في سكون القيلولة، عاريين تحت مروحة السقف التي لم يطغ ازيزها على نقر طيور الرخمة التي كانت تدب كحبات البرد فوق سطح الصفيح الساخن. كان فلورينتينو اريثـا يحبهـا كما أحب كثـيرات من النسـاء الاخـريات العابرات في حياته الطويلة، لكنه كان يحب هذه بكرب أشد، لانه كان موقناً من انه سيكون قد مات من الشيخوخة حين تنتهي هي من المدرسة العليا.

كانت الحجرة تبدو اشبه بقمرة سفينة، بجدرانها المصنوعة من ألواح خشبية طليت مرات ومرات فوق طلائها الأول، كما هو الحال في السفن. لكن الحر كان أشد من حر قمرات سفن النهر في الـرابعـة مساء، رغم المروحة المعلقة فوق السرير، وذلك للحر الذي يعكسه السقف المعـدني. لم تكن حجـرة نوم عاديـة وانـما قمـرة على اليابسة أمر فلورينتينو اريثا ببنائها خلف مكاتبه في ش. ك. م. ن.، دون نية أوذريعة اخرى سوى الحصول على ملجأ جيد لغرامياته كعجوز. كان النوم هناك مستحيلاً في الايام العادية بسبب صراخ عمال شحن السفن وقعقعة رافعـات الميناء النهري، وجؤار السفن الضخمة في الميناء. ولكنها كانت بالنسبة للطفلة جنة

أيام الآحاد.

فكرا بالبقاء معاً في يوم العنصرة حتى موعد عودتها إلى المدرسة الداخلية، قبل خمس دقائق من صلاة التبشير، لكن قرع النواقيس ذكر فلورينتينو اريثا بوعده في حضور جنازة جيرميا دي سانت ـ آمور. فارتدى ملابسه بأسرع مما يفعل في العادة، وكان قد جدل قبل ذلك، كعادته، ضفيرة الطفلة التي يحملها قبل ممارسة الحب، ورفعها فوق الطاولة ليعقد لها شريط حذائها المدرسي، الذي لم تحسن ربطه يوماً. كان يساعدها دون خبث، وكانت تساعده ليساعدها كما لو كان ذلك واجباً عليها. لقد فقد كلاهما الاحساس بالسن منذ لقاءاتهما الأولى، وتعاملا بثقة زوجين اخفيا عن بعضهما اموراً كثيرة في هذه الحياة حتى لم يعد لديهما ما يقولانه.

كانت مكاتب الشركة مقفلة وغارقة في الظلام لان اليوم عطلة، لم يكن في الميناء المقفر سوى سفينة واحدة مراجلها مطفأة. وكان الحر المحتدم ينذر بهطول المطر، أول أمطار السنة، لكن شفافية الهواء وصمت الميناء الاحدي بديا وكأنهما من شهر لطيف. وكانت الدنيا من هناك اكثر فجاجة من ظلمة القمرة، وكان قرع النواقيس اكثر ايلاماً دون معرفة لمن تقرع. نزل فلورينتينو اريثا والطفلة إلى فناء ملح البارود الذي استخدمه الاسبان فيما مضى كميناء للنخاسة وحيث ما زالت بقايا المثقال وحدائد اخرى من تجارة الرقيق. كانت السيارة تنتظرهما في ظل الحانات، ولم يوقظا السائق النائم فوق المقود إلى ان استقرا في مقعديهما. دارت السيارة من وراء الحانات المسيجة بشبكة معدنية كشباك أقنان الدجاج، واجتازت الفراغ الذي كان يشغله في السابق سوق لاس اينماس، حيث كانت جماعة من اليافعين شبه العراة يلعبون بالكرة، وخرجت من الميناء النهري وسط زوبعة من الغبار الملتهب. كان فلورينتينو اريثا متأكداً ان التشريف الجنائزي لا يمكن ان يكون من اجل جيرميادي سانت ـ آمور، لكن الحاح النواقيس جعله يرتاب. وضع يده على كتف السائق وسأله صارخاً لماذا تقرع الاجراس.

فقال السائق:

ـ انها من أجل هذا الطبيب المعروف.. ما اسمه؟

لم يكن على فلورينتينو اريثا ان يفكر بالأمر ليعرف من المقصود. ولكن سرعان ما غار الوهم الفوري حين روى له السائق كيف مات، لانه لم يجد الأمر محتملاً. فلا شيء يشبه الانسان كطريقة موته، وليس من موت يبدو أقل شبهاً للرجل الذي تصوره من هذه الميتة. لكنه كان هو نفسه، حتى ولو بدا الأمر غير معقول: فالطبيب الاكبر سناً والاكثر تأهيلاً في

المدينة، وأحد رجالها المرموقين لمشاركته في نشاطات اخرى كثيرة، قد مات اثر تهشم نخاعه الشوكي، عن احدى وثمانين سنة، لدى سقوطه من شجرة مانغا وهو يحاول امساك ببغاء.

كل ما فعله فلورينتينو اريثا منذ زواج فيرمينا داثا، كان يرتكز على أمل هذا الخبر. ولكن حين ازفت الساعة لم يشعر برعشة الانتصار التي كثيرا ما تصورها في اوقات ارقه، وانما أحس بضربة من مخلب الرعب: لقد رأى بوضوح عجيب انه كان يمكن لهذه النواقيس ان تقرع لموته هو. وفزعت اميركا فيكونيا، الجالسة إلى جواره في السيارة المتقافزة على الشوارع الحجرية، لشحوبه وسألته عما أصابه. فأمسك فلورينتينو اريثا يدها بيده المتجمدة، وتنهد قائلاً:

ـ آه يا صغيرتي. تلزمني خمسون سنة اخرى لأروي لك. نسي جنازة جيرميادي سانت ـ آمور. وترك الصغيرة أمام باب المدرسة الداخلية واعداً اياها على عجل بالمجيء اليها يوم السبت القادم، ثم أمر السائق بالتوجه إلى بيت الدكتور خوفينال اوربينو. وجد ازدحام سيارات وعربات اجرة في الشوارع المجاورة، وحشداً من الفضوليين مقابل البيت فمدعوو الدكتور لاثيديس اوليفيا، الذين تلقوا النبأ المشؤوم وهم في اوج الحفلة، جاؤوا على عجل. ولم يكن التحرك في البيت سهلاً بسبب الازدحام، لكن فلورينتينو اريثا تمكن من شق طريقه حتى غرفة النوم الرئيسية، ورفع نفسه أعلى من المجموعة المحتشدة امام الباب، ورأى خوفينال اوربينو على السرير الزوجي كما تمنى رؤيته مذ سمع باسمه لأول مرة، محاطاً بوقار الموت. انتهى النجار حينئذ من أخذ المقاسات لصنع التابوت. والى جانبه، بفستان الجدة حديثة الزواج الذي ارتدته للحفلة، كانت تقف فيرمينا داثا منذهلة وكئيبة.

كان فلورينتينو اريثا قد تخيل تفاصيل تلك اللحظة منذ أيام شبابه، حين كرس نفسه كلياً لقضية هذا الحب المتهور. فمن أجلها احرز لقباً وثروة، ومن أجلها عني بصحته وبمظهره الشخصي عناية لم تكن تبدو جديرة بالرجولة لابناء عصره، وانتظر ذلك اليوم كما لم يستطع أحد انتظار أحد أو شيء في هذا العالم: دون لحظة واحدة من التقاعس. ويقينه بان الموت قد تدخل اخيراً لصالحه، بث فيه الشجاعة التي كان يحتاجها ليكرر أمام فيرمينا داثا، في ليلتها الأولى كأرملة، يمين الولاء الابدي وحبه الدائم.

لم ينف أمام نفسه بان ما فعله كان عملاً طائشاً، لا معنى له في هذا الوقت وهذه الطريقة، وانه قد تسرع لخوفه من أن لا تسنح له الفرصة ثانية. كان قد أعد ما يريده بطريقة أقل فظاظة، لكن الحظ لم يسعفه بأحسن مما فعل. خرج من بيت العزاء متألماً لانه تركها تعاني حالة الاضطراب التي كان يعانيها هو نفسه، ولكنه لم يستطع عمل شيء لمنع ذلك عنها، لانه أحس بان تلك الليلة الهمجية كانت مكتوبة منذ الأزل في قدرهما معاً.

لم يستطع النوم ليلة واحدة خلال الاسابيع التالية. كان يتساءل يائساً أين يمكن ان تكون فيرمينا داثا من دونه، وبماذا تفكر، وماذا ستفعل خلال السنوات المتبقية لها في الحياة بثقل الرعب الذي خلفه بين يديها. عانى من نوبة امساك نفخت بطنه كطبل، وكان عليه ان يلجأ إلى المسكنات الاكثر لطفاً من الحقن الشرجية. كما ان آلام الشيخوخة، التي كان يحتملها خيراً من معاصريه، لانه عرفها منذ شبابه، هاجمته كلها دفعة واحدة. وعندما حضر إلى المكتب، يوم الاربعاء، بعد اسبوع من الغياب، ارتعدت ليونا كاسياني لرؤيته على تلك الحالة من الشحوب والاسترخاء. لكنه طمأنها: انه الأرق ثانية كالعادة، وعاد يعض لسانه كي لا تفلت الحقيقة من ثقوب قلبه الكثيرة. ولم يمنحه المطر هدنة مشمسة ليفكر فقضى اسبوعاً لا واقعياً آخر، دون قدرة على التركيز في شيء. وكان يأكل بشكل سيء وينام بطريقة أسوأ، ويحاول تحسس اشارات مبهمة تهديه إلى سبيل الخلاص. لكن طمأنينة داهمته منذ يوم الجمعة بلا اية مبررات، ففسرها على انها نذير بان شيئاً جديداً لن يحدث، وان كل ما فعله في الحياة كان بلا جدوى وليس لديه ما يتابع من اجله: انها النهاية. ومع ذلك، فلدى وصوله يوم الاثنين إلى بيته في شارع لاس فينتاناس، اصطدم برسالة مبللة بالماء المتجمع وراء الباب، وتعرف من المغلف في الحال على الخط المتسلط الذي لم تستطع تبديله كل تقلبات الحياة، بل انه احس برائحة العطر الليلي لازهار الياسمين الذابلة، لأن قلبه حدثه بكل شيء منذ الرهبة الأولى: انها الرسالة التي انتظرها، دون لحظة راحة واحدة، خلال اكثر من نصف قرن.

لم تتصور فيرمينا داثا انه يمكن لفلورينتينو اريثا فهم تلك الرسالة التي دفعها الغضب لكتابتها على انها رسالة حب. لقد ضمنتها كل السخط الذي استطاعته، مستخدمة أقسى ما لديها من عبارات واهانات جارحة، وظالمة أيضاً، ومع ذلك رأت انها ضئيلة أمام حجم الاساءة. كانت الرسالة ذروة مرارة دامت اسبوعين، وقد حاولت الوصول من خلالها إلى مصالحة مع وضعها الجديد. أرادت ان تعود إلى ذاتها، وان تسترد كل ما اضطرت للتخلي عنه خلال نصف قرن من العبودية التي كانت سعيدة بها دون شك. ولكن موت زوجها لم يترك لها اثراً من هويتها. كانت شبحاً في بيت غريب تحول بين يوم وآخر إلى بيت فسيح موحش، وكانت هي تهيم فيه على غير هدى، متسائلة بمرارة من هو الميت: أهو الذي مات أم هي التي بقيت على قيد الحياة.

ما كانت قادرة على تصريف احساس عميق بالغضب من الزوج الذي تركها وحيدة وسط بحر الظلمات. كان كل شيء من اشيائه يدفعها للبكاء: البيجاما التي تحت الوسادة، والخف الذي كان يبدو لها دوماً وكأنه خف مريض، وذكرى صورته المطبوعة في عمق المرآة وهو يخلع ملابسه فيما هي تسرح شعرها للنوم، ورائحة بشرته التي ستبقى عالقة ببشرتها لوقت طويل بعد موته. كانت تتوقف عن أي عمل تقوم به وتضرب جبهتها بكفها، لانها تذكرت فجأة شيئاً نسيت ان تخبره به. وترد إلى ذهنها في كل لحظة الاسئلة اليومية الكثيرة التي لا يستطيع الاجابة عنها أحد سواه. لقد قال لها في أحد الايام شيئاً لم تستطع تصوره: ان المبتورين يحسون آلاماً، وخدراً، ودغدغة في ارجلهم التي ما عادوا يمتلكونها. وهذا ما شعرت به هي من دونه.. كانت تشعر بوجوده حيث لم يعد له من وجود.

لدى استيقاظها في ليلتها الأولى كأرملة، تقلبت في السرير دون ان تفتح عينيها، بحثاً عن وضع مريح لمتابعة النوم، فكان ان مات بالنسبة لها في هذه اللحظة. اذ وعت حينئذ فقط بانه

قضى الليل لأول مرة خارج البيت. ثم كان انفعالها الاخر على المائدة، ليس لشعورها بانها وحيدة، كما كانت فعلاً، وانما لقناعتها الغريبة بانها تتناول الطعام مع شخص ما عاد موجوداً. وانتظرت قدوم ابنتها اوفيليا من نيو اورليانز، مع زوجها وبناتها الثلاث، كي تجلس من جديد إلى المائدة لتناول الطعام، ولكنها لم تستخدم الطاولة المعتادة، وانما مائدة مرتجلة، أصغر حجماً، أمرت بوضعها في الممر. ولم تكن حتى ذلك الحين قد أعدت وجبة نظامية، بل كانت تمر من المطبخ في أي وقت، حين تشعر بالجوع، فتغرز الشوكة في القدر وتأكل قليلاً من كل شيء دون ان تضع الطعام في طبق، وهي واقفة أمام الموقد، تتحدث إلى الخادمات اللواتي كانت تشعر معهن وحدهن بانها على مايرام، وتتفاهم معهن على أحسن وجه. ورغم كل محاولاتها، لم تتمكن من تجنب حضور زوجها: فحيث ذهبت وحيث مرت، ومهما فعلت، كانت تصطدم بشيء من اشيائه يذكرها به. ومع ان ذلك الألم كان يبدو لها نبيلاً ولازماً، الا انها كانت تريد عمل أي شيء أيضاً كي لا تتلذذ بالألم. وهكذا اتخذت قرارها الحاسم باخراج كل ما يذكرها بالزوج الميت من البيت، وهي الوسيلة الوحيدة التي خطرت لها كي تتمكن من مواصلة الحياة بدونه.

كانت عملية استئصال. وافق الابن على أخذ الكتب لتحول المكتب إلى غرفة الخياطة التي لم تمتلكها أبداً وهي متزوجة. أما الابنة، فأخذت بعض الاثاث وعدداً من الاشياء التي تبدو ملائمة جداً للبيع في مزاد العاديات في نيو اورليانز. كان هذا كله مهدئاً لفيرمينا داثا، التي لم تر أية ظرافة في تحققها من أن ما اشترته في رحلة زفافها قد صار اثاراً قديمة. وأمام الذهول الصامت للخادمات، والجيران، والصديقات المقربات اللواتي كن يأتين لمرافقتها في تلك الايام، أضرمت محرقة في أرض خلاء وراء البيت، وأحرقت هناك كل ما يذكرها بزوجها: اكثر الملابس التي رأتها المدينة منذ القرن الماضي كلفة واناقة، واكثر الاحذية دقة، والقبعات التي تشبهه اكثر من صوره، وكرسي القيلولة الهزاز الذي نهض عنه اخر مرة ليموت، وأشياء لا تحصى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته وتشكل جزءاً من هويته. فعلت ذلك دون اي تردد، وبيقين كامل في ان زوجها كان سيؤيد ذلك، ليس لأسباب تتعلق بالوقاية الصحية فقط، بل ولانه كثيراً ما أعرب لها عن رغبته بان تُحرق جثته، وألا يحشر في الظلام دون أية فجوة في صندوق من خشب الارز. ان دينه يمنع ذلك دون ريب: وكان بامكانها ان تتجرأ على جس نبض الاسقف، لترى وجهة نظره على أية حال، وكان هذا سيرد عليها بجواب سلبي قاطع. فالأمر محض وهم، لان الكنيسة لا تسمح باقامة افران لاحراق الجثث في مقابرنا، حتى ولو كانت تابعة لاديان غير الدين الكاثوليكي. كما انه لم يخطر لأحد سوى خوفينال اوربينو جدوى بناء محارق كهذه. لم تنس فيرمينا داثا رعب زوجها هذا، بل انها

تذكرت في فوضى الساعات الأولى التي تلت موته ان تأمر النجار بترك ثغرة تسمح بدخول الضوء الى التابوت.

كانت محرقة بلا جدوى على اي حال. فسرعان ما ادركت فيرمينا داثا ان ذكرى زوجها الميت كانت مقاومة للنار كمقاومتها لمرور الايام على ما يبدو. ورغم ذلك، فانها لم تحتفظ بعد احراق الثياب بحنينها لكل ما أحبت فيه فقط، وانما أيضاً، وقبل كل شيء، لأكثر ما كان يزعجها فيه: الضجة التي كان يثيرها عند استيقاظه. وقد ساعدتها هذه الذكريات على الخروج من أحراش الحداد. فاتخذت قراراً حاسماً بمتابعة الحياة، متذكرة زوجها وكأنه لم يمت. كانت تعلم ان استيقاظها كل صباح سيكون صعباً، لكنه سيصبح أقل وطأة يوماً بعد يوم.

وبدأت تلمح فعلاً، عند انتهاء الاسبوع الثالث، أول الانوار. ولكن كلما ازدادت تلك الانوار وأصبحت أشد وضوحاً، كانت تعي ان في حياتها شبحاً مطعوناً لا يتركها لحظة بسلام. لم يكن الشبح المثير للشفقة الذي كان يترصدها في حديقة البشارة، والذي اعتادت تذكره منذ شيخوختها بشيء من الرقة، وانما الشبح البغيض الذي يرتدي سترة الجلاد ويحمل قبعته مستندة إلى صدره، والذي أقلقتها سفاهته السخيفة إلى حد يستحيل عليها عدم التفكير به. لقد كانت مقتنعة دوماً، منذ صدته وهي في الثامنة عشرة من عمرها، بانها تركت فيه بذرة حقد لم يفعل الزمن شيئاً سوى تنميتها. وكانت تحسب حساب هذا الحقد في كل لحظة، وتشعر به في الهواء حين يكون الشبح قريباً منها، وكانت مجرد رؤيته تقلقها وترعبها إلى حد انها لم تجد أبداً اسلوباً طبيعياً للتعامل معه. وفي الليلة التي كرر فيها عرض حبه، حين كانت ازهار زوجها الميت ما تزال تعبق في جو البيت، لم تستطع ان تفهم تلك الحركة الخبيثة إلا كخطوة اولى من انتقام مشؤوم لا يعرف مداه أحد.

وقد فاقم الحاح ذكراه من غضبها. وحين استيقظت وهي تفكر به، في اليوم التالي للدفن، استطاعت محوه من ذاكرتها باشارة بسيطة من ارادتها. لكن الغضب كان يعاودها دوماً، وسرعان ما أدركت ان رغبتها في نسيانه كانت أقوى محرض لتذكره. حينئذ تجرأت لأول مرة، في اذعانها للحنين، على استحضار ذكرى الزمان الوهمي لذلك الحب اللاواقعي. كانت تحاول ان تتذكر كيف كانت الحديقة بالضبط في ذلك الحين، وكيف كانت اشجار اللوز المحطمة، والمقعد الحجري الذي كان يحبها منه، لان شيئاً من هذا ما عاد موجوداً كما كان يومها. لقد تبدل كل شيء، اذ استأصلوا الاشجار وسجادتها من الاوراق الصفراء، وأقاموا مكان تمثال البطل مقطوع الرأس تمثالاً لشخص آخر يرتدي زي المراسم العسكري، بلا اسم ولا تاريخ وبلا تفسير يبرر نصبه هناك، على قاعدة فخمة وضعوا في جوفها لوحة مفاتيح

التحكم بكهرباء الحي. اما بيتها، الذي بيع اخيراً، فقد كان يتهاوى خراباً بعد هذه السنوات الطويلة بين يدي الحكومة الاقليمية. ولم يكن من السهل عليها تصور فلورينتينو اريثا كما كان في ذلك الحين، كما لم تكن قادرة على ان تصدق بان ذلك الشاب المكفهر، البائس جداً تحت المطر، هوذات الشيخ المنخور الذي وقف امامها دون أي اعتبار لحالتها، وبلا أي احترام لألمها، وكوى روحها بإهانة لاهبة ما زالت تثقل على انفاسها.

كانت ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث قد جاءت لزيارتها بعد وقت قصير من عودتها من مزرعة فلوريس دي ماريا، وحين كانت تستجمع قواها من ساعة نحس الانسة لينتش. لقد جاءت هيلديبراندا عجوزاً، بدينة وسعيدة، يرافقها ابنها البكر، الذي اصبح عقيداً في الجيش، مثل ابيه الذي تبرأ منه اثر تصرفه الدنيء في مجزرة عمال الموز في سان خوان دي لاثيناغا. كانت ابنة الخال وابنة العمة قد التقتا مرات عديدة، وكانتا تقضيان الساعات دوماً وهما تحنان إلى الحقبة التي تعارفتا فيها. وقد كانت هيلديبراندا اكثر حنيناً في زيارتها الاخيرة مما كانت عليه في أي لقاء آخر، واكثر تأثراً بثقل الشيخوخة. وكتأكيد لحنينها، أحضرت معها نسختها من الصورة التي التقطها لهما المصور البلجيكي مساء اليوم الذي وجه فيه الشاب نوفينال اوربينو طعنة الرحمة لارادة فيرمينا داثا. كانت نسخة هذه الاخيرة من الصورة قد ضاعت، بينما كانت نسخة هيلديبراندا غير واضحة المعالم، لكنهما تعرفتا على نفسيهما من خلال غلالة الخيبة: شابتان وجميلتان كما لن تصبحا أبداً.

كان مستحيلاً ألا تتحدث هيلديبراندا عن فلورينتينو اريثا، لانها كانت تجد قدرها في قدره. وكانت تتذكره كما رأته يوم بعثت أولى برقياتها، ولم تتمكن أبداً ان تنزع من قلبها ذكراه كعصفور كئيب محكوم عليه بالنسيان. أما فيرمينا، فقد رأته مرات ومرات، دون ان تبادله الحديث طبعاً، ولم تكن قادرة على ان تتصور انه هو حبها الأول ذاته. لقد كانت تصلها على الدوام اخبار عنه، مثلما تصلها عاجلاً أو آجلاً أخبار كل من له مكانة في المدينة. كان يقال بانه لم يتزوج لانه ذو عادات مختلفة، ولكنها لم تول هذه الأقاويل اهتماماً أيضاً، لانها لم تهتم يوماً بالشائعات من جهة، ولانه كانت تقال أشياء مشابهة عن رجال كثيرين لا مجال للشك فيهم من جهة اخرى. وكانت تستغرب بالمقابل احتفاظ فلورينتينو اريثا بزيه الصوفي، وعطره الغريب، وبقائه غامضاً هكذا بعد ان شق سبيله في الحياة بطريقة جد استعراضية اضافة إلى كونها شريفة. ولم تكن لتصدق بانه الشخص نفسه، وكانت تفاجأ دائماً حين تتنهد هيلديبراندا قائلة: «يا للرجل المسكين، كم تألم!». اذ كانت تراه دون آلام منذ زمن بعيد: فهو شبح ممحو.

ومع ذلك، فقد أصاب قلبها شيء غريب ليلة التقت به في السينما، بعد رجوعها من فلوريس دي ماريا. لم تفاجأ بخروجه مع امرأة، وامرأة زنجية كذلك. لكن ما فاجأها هو انه مازال في حالة جيدة، وانه يتصرف بطلاقة شديدة، ولم يخطر لها ان تفكر بانها قد تكون هي، وليس هو، من طرأ عليه التبدل بعد دخول الانسة لينتش العاصف في حياتها الخاصة. منذ ذلك الحين، وخلال اكثر من عشرين سنة، تابعت رؤيته بعينين اكثر اشفاقاً. وفي ليلة السهر على زوجها الميت لم يبد لها وجوده هناك أمراً مفهوماً وحسب، بل رأت فيه النهاية الطبيعية للاحقاد: تصرف ينم عن العفو والنسيان. ولهذا لم تكن تتوقع اعادة المأساوية لعرض حب لم تشعر بوجوده يوماً، وفي سن لم يبق لفلورينتينو اريثا ولها فيها من شيء ينتظرانه من الحياة.

بقي غضب الوهلة الأولى القاتل بكامل زخمه بعد الاحراق الرمزي للزوج، وراح ينمو ويتشعب اكثر فأكثر كلما شعرت بانها أقل قدرة في السيطرة عليه. بل واكثر من ذلك: ففراغات الذاكرة التي تتمكن من اخلائها باقصاء ذكرى الميت منها، كان يحتلها شيئاً فشيئاً، ولكن باصرار، مرج البرقوق الذي كانت ذكرى فلورينتينو اريثا مدفونة فيه. وهكذا كانت تفكر فيه دون ان تحبه، وكلما فكرت فيه اكثر ازداد غضبها عليه، وكلما ازداد غضبها منه كانت تفكر فيه أكثر، إلى ان أصبح شيئاً لا يطاق، وطفح به ذهنها. حينئذ جلست إلى طاولة زوجها الميت، وكتبت إلى فلورينتينو اريثا رسالة من ثلاث صفحات متهورة ومشحونة بالسباب والاستفزازات الشنيعة، التي هدأت من روعها لاقترافها بذلك أحط فعلة في حياتها الطويلة.

لقد كانت تلك الاسابيع الثلاثة بالنسبة لفلورينتينو اريثا أيضاً أسابيع احتضار. ففي الليلة التي كرر فيها عرض حبه على فيرمينا داثا هام على غير هدى في الشوارع المخربة بطوفان المساء، متسائلاً بفزع ما الذي سيفعله بجلد النمر الذي انتهى من قتله بعد ان قاوم حصاره لأكثر من نصف قرن. كانت المدينة تعيش حالة طوارىء بسبب عنف الأمطار. وفي بعض البيوت كان ثمة رجال ونساء شبه عراة يحاولون انقاذ ما يشاؤه الله من وسط الطوفان، وأحس فلورينتينو اريثا بان لتلك الكارثة الجماعية علاقة ما بكارثته الشخصية. لكن الهواء كان وديعاً وكانت نجوم الكاريبي ساكنة في مواقعها. وفجأة، كما في سكون أزمنة اخرى، تعرف فلورينتينو اريثا على صوت الرجل الذي كان قد سمعه وليونا كاسياني يغني مرات كثيرة، في مثل هذه الساعة وعند الناصية نفسها: من الجسر رجعت مبللاً بالدموع. اغنية كان لها، بالنسبة له فقط، علاقة ما بالموت في تلك الليلة.

لم يشعر يوماً بالحاجة إلى ترانسيتو اريثا كما شعر يومئذ، كان بحاجة لكلمتها الحكيمة، ورأسها كملكة سخرية متوجة بأزهار ورقية. ولم يستطع الحيلولة دون ذلك: فكلما وجد نفسه في خضم الكارثة، احس بحاجته إلى الانزواء في كنف امرأة. وهكذا مر من أمام مدرسة

المعلمات بحثا عمن هن في متناول يده، ورأى نوراً ينبعث من نافذة اميركا فيكونيا. وقد اضطر للقيام بمجهود كبير كي لا يقدم على حماقة جدّ هرم باخراجها في الساعة الثانية فجراً، وهي دافئة بالحلم بين اقمطتها، ورائحة المهد ماتزال تفوح منها.

في الطرف الآخر من المدينة كانت ليونا كاسياني، وحيدة وحرة. ومستعدة دون ريب لان تقدم له الحنان الذي يحتاجه سواء أكانت الساعة الثانية، أو الثالثة فجراً، أو أي ساعة اخرى. ولم تكن المرة الاولى التي يدق بابها في ارقه المقفر، لكنه أحس بانها ذكية إلى حد بعيد، وانهما يحبان بعضهما كثيراً، بحيث لا يمكنه الذهاب للبكاء في حضنها دون ان يفضي لها بالسبب. وبعد تفكير طويل، سار مسرعاً في المدينة المقفرة، وخطر له بانه لن يجد بينهن خيراً من بروديثيا بيترا: أرملة السرب. كانت أصغر منه بعشر سنوات. وكانا قد تعارفا في القرن الماضي، واذا كانا لا يلتقيان منذ زمن فلأنها أصرت ألا تسمح لأحد بان يراها وهي في الحال الذي صارت اليه: شبه عمياء، وعلى حافة الشيخوخة فعلاً. وما ان تذكرها فلورينتينو اريثا حتى عاد إلى شارع لاس فينتاناس، ودس في حقيبة المشتريات زجاجتي نبيذ وقطرميز مخلل، ومضى لزيارتها دون ان يدري ان كانت ما تزال في بيتها نفسه، أو اذا كانت وحدها، أو اذا كانت ما تزال على قيد الحياة.

لم تكن بروديثيا بيترا قد نسيت اشارة الخمش على الباب، التي كان يُعرف بها على نفسه حين كانا يظنان انهما ما يزالان شابين رغم انهما لم يكونا كذلك، وفتحت له دون اسئلة. كان الشارع مظلماً ولم يكن هو مرئياً ببدلته السوداء وقبعته القاتمة ومظلة الخفاش المعلقة بذراعه، كما لم تكن لعينيها القدرة على رؤيته إلا في وضح الضوء، لكنها تعرفت عليه من انعكاس وميض عمود النور على اطار نظارته المعدني. كان يبدو كقاتل مازالت يداه ملطختين بالدم.

قال:

ـ المأوى ليتيم بائس.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله. وفوجىء بكم هرمت مذ رآها لآخر مرة، وكان مدركاً بانها تراه كذلك. ولكنه عزّى نفسه بالتفكير بانهما بعد دقيقة، وحينما يستعيدان انفاسهما من اثر الوهلة الأولى، سيلاحظ كل منهما اقل فأقل اثار السن في الآخر، وسيعودان ليريا بعضهما اكثر شباباً، كما كان كل منهما بالنسبة للآخر عندما تعرفا.

قالت له:

ـ تبدو وكأنك ذاهب إلى جنازة.

ولقد كان كذلك. كما انها وقفت هي أيضاً إلى النافذة منذ الساعة الحادية عشرة، مثلما فعل جميع أهل المدينة تقريباً لرؤية مرور اكثر المواكب حشداً وفخامة منذ موت الاسقف دي

لونا. لقد ايقظتها من النوم أصوات المدافع التي كانت تهز الأرض، واختلاط فرق الموسيقى العسكرية، وفوضى الاغاني الجنائزية التي تعلو على ضجة نواقيس جميع الكنائس المدوية دون توقف منذ اليوم السابق. وقد رأت من شرفتها العسكريين وهم يمرون على صهوات جيادهم بزي المراسيم، والهيئات الدينية، وتلامذة المدارس، وسيارات السلطات اللامرئية الطويلة السوداء، وعربة الدفن الفاخرة التي تجرها خيول رؤوسها مزينة بالريش وسروجها بالذهب، والتابوت الاصفر المغطى بالعلم فوق عربة مدفع تاريخية، واخيراً مجموعة عربات الفيكتوريا القديمة المكشوفة والتي ما زالت على قيد الحياة لحمل اكاليل المآتم. وبعد حوالي نصف ساعة من مرورهم أمام شرفة بروديثيا بيترا، انهمر المطر طوفاناً، وتفرق الموكب في كل الانحاء.

قالت:

ـ يالها من طريقة سخيفة في الموت.

فقال:

ـ ليس في الموت ما هو مضحك ـ ثم أضاف بحزن ـ : وخصوصاً في مثل سننا.

كانا يجلسان على المصطبة، مقابل البحر الفسيح، يتأملان القمر المحاط بهالة تحتل نصف السماء، ويرنوان إلى الاضواء الملونة المنبعثة من السفن في الافق، وينعمان بالنسيم الدافىء والعطر بعد العاصفة. كانا يشربان النبيذ ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز القروي الذي اقتطعته بروديثيا بيترا من رغيف في المطبخ. لقد امضيا معاً ليالي كثيرة مثل هذه الليلة بعد ان أصبحت أرملة وبلا أولاد وهي في الخامسة والثلاثين من العمر. لقد التقاها فلورينتينو اريثا في حقبة كانت مستعدة فيها لاستقبال أي رجل يرغب بمرافقتها، حتى لو استأجرته بالساعة، وتمكنا من اقامة علاقة اكثر جدية وأطول أمداً مما بدا ممكناً.

ورغم انها لم تُلمح للأمر أبداً، إلا انها كانت مستعدة لأن تبيع روحها للشيطان في سبيل الزواج منه في زفاف ثان. كانت تعلم ان الخضوع لشحه ليس سهلا، وكذلك الاذعان لحاجاته كشيخ مبكر، ولأوامره المخبولة، وجشعه في طلب كل شيء دون اعطاء أي شيء. ولكنها لم تكن تجد بالمقابل رجلا يمكن العيش معه في هذه الدنيا خيراً منه، لانه لا وجود في الدنيا لرجل آخر فقير مثله الى الحب لهذا الحد. ولكن لم يكن هناك في الوقت ذاته من هو اكثر تقلباً منه، اذ لم يكن يمكن للحب ان يصل إلى ابعد مما كان يصل اليه: الى حيث لا يؤثر في قراره بالاحتفاظ بحريته من اجل فيرمينا داثا. ومع ذلك، استمرت علاقتهما لسنوات طويلة، حتى بعد ان رتب أمر زواج بروديثيا بيترا ثانية من وكيل تجاري كان يستقر ثلاثة شهور في المدينة ثم يقضي ثلاثة شهور اخرى مرتحلا، وانجبت منه ابنة واحدة واربعة ابناء،

كان أحدهم، حسب زعمها، من فلورينتينو اريثا.

تحادثا دون احساس بالوقت، لانهما كانا معتادين على مشاطرة بعضهما سهاد شبابهما، وكان ما سيخسرانه في سهاد الشيخوخة أقل بكثير. ورغم ان فلورينتينو اريثا ما كان يتجاوز الكأس الثانية حين يشرب، إلا انه لم يستعد انفاسه يومها رغم تناوله الكأس الثالثة. كان يتعرّق بغزارة، وقالت له أرملة الرب ان يخلع سترته، ان يخلع صدريته، بنطاله، ان يخلع كل ما يشاء، اللعنة، فهما في نهاية المطاف يعرفان بعضهما عاريين خيراً من معرفتهما بالملابس. وقال انه سيفعل ذلك إن هي فعلت، لكنها لم تقبل: لقد رأت نفسها منذ زمن في مرآة الخزانة، وأدركت فجأة بأن الشجاعة لن تواتيها للظهور عارية أمامه أو أمام سواه.

وفي حالة الهيجان التي لم يستطع فلورينتينو اريثا تهدئتها بأربع كؤوس من النبيذ، تابع الحديث عن الماضي، عن ذكريات الماضي الطيبة موضوع حديثه الوحيد منذ زمن بعيد، لكنه كان يتشوق للعثور على طريق سريّ في الماضي ليغرق نفسه فيه. كان هذا هو ما يحتاجه: ان يقف روحه من فمه. وحين أحس بأول بريق في الأفق حاول الاقتراب من الموضوع مداورة، فسألها بطريقة بدت عرضية: «ماذا تفعلين اذا ما عرض أحدهم عليك الزواج، هكذا كما أنت، أرملة وفي هذه السن؟». ضحكت ضحكة مجعدة كعجوز، وسألت بدورها:

ـ أتعني بهذا ارملة اوربينو؟

كان فلورينتينو اريثا ينسى دائماً، حين لا يحب النسيان، ان النساء يفكرن بالمعنى الخفي للاسئلة اكثر من تفكيرهن بالاسئلة ذاتها، وتفعل بروديتيا بيترا ذلك اكثر من سواها. قال لها وقد احس بأنه وقع ضحية ريح مباغتة نتيجة تسديده الطائش: «انني اعنيك انت بهذا». فعادت تضحك: «اذهب واسخر من العاهرة أمك، ليرحمها الله». ثم الحت عليه ليصارحها بما يريد ان يقوله، لانها تعلم انه لا يمكن له ولا لأي رجل آخر ان يوقظها في الثالثة فجراً، بعد الانقطاع عنها كل هذه السنوات، ليشرب النبيذ ويأكل الخبز القروي مع المخلل فقط. قالت: «لا يحدث هذا إلا لمن يبحث عمن يود البكاء معه». ارتعش فلورينتينو اريثا ثانية، وقال لها:

ـ انك مخطئة هذه المرة. فاسباب مجيئي الليلة يناسبها الغناء.

فقالت:

ـ فلنغن اذن.

بدأ يدندن بصوت لا بأس به الاغنية الدارجة: رامونا، لا أستطيع العيش بدونك. وكان في ذلك نهاية تلك الليلة، اذ انه لم يعد يجرؤ على لعب ألعاب محرمة مع امرأة قدمت له أدلة

كافية في معرفة الوجه الاخر للقمر. خرج الى مدينة مختلفة تعبق برائحة ازهار الداليا الاخيرة لشهر حزيران، وسار في شارع من شوارع شبابه حيث تمر الأرامل في العتمة وهن خارجات من صلاة الساعة الخامسة. وكان هو الذي انتقل الى الرصيف الآخر هذه المرة، وليس هن، كي لا يرين دموعه التي ما عاد يطيق حبسها، ليس منذ منتصف الليل، كما كان يظن، لان هذه الدموع كانت دموعاً اخرى: انها التي غص بها منذ حوالي احدى وخمسين سنة وتسعة شهور واربعين يوماً.

كان قد فقد الاحساس بالزمن حين استيقظ دون أن يدري المكان الذي هو فيه، مقابل نافذة مضيئة. ونقله الى الواقع صوت اميركا فيكونيا التي كانت تلعب بالكرة مع الخادمات في الحديقة. انه في سرير امه التي ما زالت حجرة نومها على حالها، حيث اعتاد النوم كي لا يشعر بالوحدة في المناسبات القليلة التي اقلقته فيها العزلة. وكانت تنتصب مقابل السرير مرآة مطعم دون سانتشو الضخمة، والتي كانت رؤيتها عند استيقاظه كافية لجعله يرى فيرمينا داثا مرسومة فيها. عرف ان اليوم هو السبت، لانه اليوم الذي يُحضر فيه السائق اميركا فيكونيا من المدرسة الداخلية، ويأتي بها الى بيته. وانتبه الى انه قد نام دون ان يدري، حالماً انه غير قادر على النوم، في حلم يعذبه فيه وجه فيرمينا داثا الغاضب. استحم وهو يفكر كيف ستكون الخطوة التالية، وارتدى أفضل ملابسه على مهل، وتعطر وصمغ شاربه الابيض ذا الطرفين المدببين، ولدى خروجه من حجرة النوم، رأى من ممر الطابق الثاني البنية الجميلة ذات الزي المدرسي وهي تمسك الكرة في الهواء بالسحر الذي بعث فيه القشعريرة لآحاد كثيرة، لكنها لم تبعث فيه هذا الصباح أي قلق. أشار لها بأن تأتي معه، وقبل ان يصعدا الى السيارة قال لها دون داع للقول: «لن نفعل اشياء هذا اليوم». ورافقها الى المقهى الاميركي للمثلجات، الذي كان يغص في مثل هذه الساعة بآباء يتناولون البوظة مع اطفالهم تحت المراوح ذات الرياش الكبيرة المعلقة بالسقف. طلبت اميركا فيكونيا بوظة من عدة طبقات متنوعة الألوان في كأس كبير، وهو النوع الذي تفضله، والذي يلقى رواجاً شديداً لان بخاراً سحرياً كان ينبعث منه. تناول فلورنتينو اريثا قهوة قوية، وهو يتأمل الطفلة دون ان يتكلم، فيما هي تتناول البوظة بملعقة طويلة جداً، تصل الى قاع الكأس. ثم قال لها فجأة، دون ان يتوقف عن مراقبتها:

ـ سأتزوج.

نظرت الى عينيه نظرة مرتابة، وهي ترفع الملعقة في الفضاء، لكنها استعادت انفاسها فوراً، وابتسمت قائلة:

ـ انها خدعة. فالشيوخ لا يتزوجون.

أوصلها مساء هذا اليوم الى المدرسة الداخلية عند موعد صلاة الانخيلوس، تحت وابل من المطر العنيد، بعد ان رأيا معاً دمى الحديقة، وتناولا الغداء في اكشاك السمك المقلي عند ملطم الامواج، وبعد ان رأيا أقفاص الحيوانات المفترسة التابعة لسيرك وصل يومئذ الى المدينة، واشتريا من الأزقة كل انواع الحلوى لتحملها معها الى المدرسة الداخلية، وبعد ان جابا المدينة عدة مرات بالسيارة المكشوفة لتبدأ الاعتياد عليه باعتباره ولي امرها، وليس عشيقاً لها. وفي يوم الأحد التالي بعث اليها السيارة لتقوم اذا كانت ترغب بنزهة مع صديقاتها، لكنه لم يشأ رؤيتها، لانه وعى منذ الاسبوع الفائت وعياً كاملا فارق السن بينهما. وفي هذه الليلة بالذات قرر ان يكتب الى فيرمينا داثا رسالة اعتذار، حتى ولو كان ذلك لمجرد عدم الاستسلام، لكنه أجل الأمر لليوم التالي. وفي يوم الاثنين، بعد ثلاثة اسابيع كاملة من الآلام، دخل الى بيته مبللا بالمطر، ووجد رسالتها.

كانت الساعة الثامنة ليلا. وكانت فتاتا الخدمة قد نامتا، تاركتين الضوء الوحيد الذي يبقى مضاء في الممر ليتمكن فلورنتينو اريثا من الوصول الى حجرة نومه. كان يعلم ان عشاءه البسيط موجود على طاولة حجرة الطعام، لكن الجوع الذي كان يشعر به بعد كل هذه الايام من الأكل العشوائي تلاشى بانفعال الرسالة. ووجد صعوبة في اضاءة نور حجرة النوم الرئيسي لارتعاش يديه. وضع الرسالة المبللة على السرير، واضاء مصباح الكوميدينو، ثم خلع سترته المبللة بهدوء مصطنع، هو من اساليبه في طمأنة نفسه، وعلقها على مسند الكرسي، ثم نزع الصدرية ووضعها بعد طيها جيداً فوق السترة، وحل شريط العنق الحريري الازرق والياقة القاسية التي ما عادت تستعمل في العالم، وفك ازرار القميص حتى الخصر ثم حل الحزام ليتنفس براحة، ونزع القبعة اخيراً ووضعها الى جوار النافذة لتجف. ارتعش فجأة لانه لم يدر أين هي الرسالة، ووصل به الانفعال حداً جعله يفاجأ حين وجدها، فهو لا يذكر بأنه وضعها على السرير. وقبل ان يفتحها جفف المغلف بمنديل، محاذراً الا يمسح الحبر المكتوب به اسمه، وفيما هو يفعل ذلك انتبه الى ان ذلك السر لم يعد مشتركاً بين اثنين فقط، وانما بين ثلاثة على الاقل، فلا بد ان حامل الرسالة، كائناً من كان، قد انتبه الى ان ارملة اوربينو تكتب لشخص من خارج عالمها ولما تمض على وفاة زوجها سوى ثلاثة اسابيع، وانها تفعل ذلك بتسرع لم يتح لها ارسال الرسالة بالبريد، وبتكتم شديد جعلها تطلب عدم تسليمها باليد، وانما دسها من تحت الباب كما لو كانت رسالة من مجهول. لم يكن بحاجة الى تمزيق المغلف، لان الماء حلل صمغه، لكن الرسالة كانت جافة: ثلاث ورقات، دون ترويسه، موقعة بالحروف الأولى من اسمها كمتزوجة.

قرأها أول مرة بسرعة وهو جالس على السرير، مستسلماً للهجتها أكثر من تمعنه بمضمونها، وقبل ان ينتقل الى الصفحة الثانية كان متأكداً من عدالة الشتائم التي انتظر تلقيها. وضعها مفتوحة تحت ضوء مصباح الكوميدينو، ونزع حذاءه والجوربين المبللين، ثم أطفأ نور الحجرة الرئيسي بمفتاح الكهرباء المجاور للباب، ووضع على وجهه غطاء الشوارب المصنوع من الشمواة واستلقى دون ان يخلع بنطاله والقميص، مسنداً رأسه الى وسادتين كبيرتين كان يستخدمهما كمسند حين يقرأ. وهكذا أعاد قراءة الرسالة حرفاً حرفاً، مدققاً في كل حرف كي لا تبقى أية نية من نواياها الخفية دون حل. ثم قرأها أربع مرات اخرى، الى ان تشبع بها وأصبحت الكلمات المكتوبة تفقد معناها. بعد ذلك خبأ الرسالة دون المغلف في درج الكوميدينو، واستلقى شابكا يديه على عنقه، وثبت نظره لأربع ساعات في المرآة حيث كانت هي، دون ان يرمش، ودون ان يتنفس تقريباً، وكان اكثر موتاً من ميت. وعند منتصف الليل تماماً خرج الى المطبخ، فأعد ترمس قهوة كثيفة كالبترول الخام، وحمله الى حجرة نومه، وألقى باسنانه الاصطناعية في كأس الماء الممزوج بمطهر البورون الذي كان يجده بانتظاره دوماً فوق الكوميدينو، وعاد ليستلقي بوضعية تمثال المرمر السابقة مع حركة محدودة بين وقت وآخر لارتشاف بعض القهوة، وبقي على هذا الحال الى ان دخلت الخادمة في الساعة السادسة وهي تحمل ترمساً آخر مليئاً بالقهوة.

في هذه الساعة كان فلورينتينو اريثا قد عرف تماماً كل خطوة من خطواته التالية. الحقيقة ان الشتائم لم تسبب له الألم كما لم تقلقه الاتهامات الجائرة، التي كان يمكن لها ان تكون أقسى نظراً لمعرفته طبع فيرمينا داثا وخطورة السبب. الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو الرسالة ذاتها لانها تتيح له الفرصة وتعترف له بحق الرد عليها. بل وتتطلب ذلك منه. وهكذا وصلت الحياة الى الحد الذي أراد ايصالها اليه. وكل ما سوى ذلك يعتمد عليه الآن. كان مقتنعاً قناعة راسخة ان جحيمه الخاص المستمر منذ نصف قرن سيقدم له مزيداً من التجارب القاتلة الكثيرة التي أصبح مستعداً لمواجهتها بحماسة أشد ومعاناة أصلب وحب أقوى من كل ما فات، لانها ستكون التجارب الاخيرة.

بعد خمسة أيام من تلقيه رسالة فيرمينا داثا، ولدى وصوله الى مكاتب شركته، أحس بانه يطفو في الفراغ الوعر وغير المألوف لآلات الكتابة، اذا ان ضجيجها المطري لم يكن ملحوظاً كصمتها. كانت وقفة قصيرة. وحين عاد الضجيج من جديد أطل فلورينتينو اريثا الى مكتب ليونا كاسياني وتأملها وهي جالسة وراء آلتها الكاتبة، التي تستجيب لرؤوس أصابعها وكأنها اداة بشرية. فأحست هي بأنها مراقبة، ونظرت نحو الباب بابتسامتها الشمسية المذهلة، لكنها لم تتوقف عن الكتابة حتى نهاية الفقرة.

سألها فلورينتينو اريثا :

ـ اخبريني يا لبوة روحي . بماذا ستشعرين اذا تلقيت رسالة حب مكتوبة على هذه الاداة ؟

وبدت عليها، هي التي لم تفاجأ بشيء، علائم مفاجأة حقيقية، وهتفت :

ـ يا للرجل! لم يحدث لي شيء من هذا القبيل .

لم تجد جواباً آخر على الاقل . ولم يكن فلورينتينو اريثا قد فكر بالأمر حتى ذلك الحين، لكنه قرر المضي بالمغامرة الى نهايتها . نقل الى بيته احدى آلات المكتب وسط سخرية مرؤوسيه المتوددة : «لا يمكن لببغاء عجوز ان تتعلم الكلام» . وعرضت عليه ليونا كاسياني، المتحمسة لكل جديد، ان تعطيه دروساً بالكتابة على الآلة في البيت . لكنه كان ضد التعليم المنهجي مذ أراد لوتاريو توغوت تعليمه عزف البيت عزف الكمان على النوتة، متوعداً بأنه سيحتاج لسنة على الأقل كي يبدأ، وخمس سنوات ليُقبل في فرقة اوركسترا محترفة، وحياته كلها، بمعدل ست ساعات يومياً ليعزف بشكل جيد . ولكنه استطاع رغم ذلك اقناع امه بأن تشتري له كمان عميان، ومن خلال القواعد الاساسية الخمس التي علمه اياها لوتاريو توغوت، تجرأ على العزف ضمن كورال الكتدرائية قبل مضي أقل من سنة وعلى عزف السيرانادات لفيرمينا داثا من مقبرة الفقراء حسب اتجاه الريح . فاذا كان قد فعل ذلك وهو في العشرين بآلة صعبة كالكمان، فلماذا لا يستطيعه أيضاً وهو في السادسة والستين بآلة تحتاج إلا لاصبع واحد كآلة الكتابة .

وهذا ما فعله . احتاج لثلاثة أيام كي يتعرف على مواقع الحروف على لوحة الملامس، وستة أيام ليتعلم التفكير في الوقت الذي يكتب فيه، ثم ثلاثة أيام اخرى لينهي الرسالة الأولى دون أخطاء، بعد أن مزق نصف ماعون من الورق . بدأ الرسالة بمطلع وقور : سيدتي . ووقعها بالحروف الأولى من اسمه، كما اعتاد ان يفعل في رسائل الحب المعطرة في شبابه . وبعثها بالبريد، في مغلف خاص برسائل التعزية كما هو محتم في رسالة مرسلة الى أرملة حديثة الترمل، وبدون كتابة اسم المرسل على الوجه الآخر للمغلف .

كانت رسالة في ست ورقات لا علاقة لها بأي رسالة من رسائله السابقة . لم تكن لها النبرة، ولا الاسلوب ولا النَفَس الخطابي الذي كان يتمتع به في سنوات الحب الأولى، بل كانت معلجة عقلانية ومتقنة التأمل، لو خالطتها رائحة زهرة ياسمين لبدت غير لائقة . لقد كانت، الى حد ما، اقتراباً من الرسائل التجارية التي لم يستطع كتابتها أبداً .

ان رسالة شخصية مكتوبة بوسائل آلية ستعتبر أمراً مهيناً بعد سنوات، أما في ذلك الحين، فكانت الآلة الكاتبة ما تزال مجرد حيوان مكتبي، بلا فلسفة خاصة بها، ولم يكن تدجينها للاستخدامات الخاصة وارداً في مناهج التمدن . وكانت تبدو كصرعة جريئة، ولا بد ان

فيرمينا داثا قد فهمت الأمر كذلك، لانها حين كتبت رسالتها الثانية الى فلورنتينو اريثا، بعد ان تلقت منه ما يزيد عن الاربعين رسالة، بدأت بالاعتذار لعثرات خطها، لكونها لا تملك وسائط كتابة أحدث من قلم الحبر ذي الريشة الفولاذية .

لم يشر فلورينتينو اريثا مجرد اشارة الى الرسالة الرهيبة التي بعثتها اليه، بل جرب منذ البداية منهجاً مختلفاً في الغواية، دون أية إشارة الى غراميات الماضي، أو الماضي بحد ذاته : شطب كل ما سبق وفتح صفحة جديدة . كانت الرسالة أشبه بتأمل مسهب في الحياة، يستند الى أفكار وتجاربه في العلاقات بين الرجل والمرأة، التي فكر بكتابتها يوماً كملحق متمم لسكرتير العاشقين . ولم يفعل حينئذ سوى صياغة تلك التأملات باسلوب بطريركي، لذكريات شيخ، كي لا تظهر بوضوح حقيقة كونها رسالة حب . لقد كتب قبل ذلك عدة مسودات على الطريقة القديمة، قد تتأخر في قراءتها ببرودة أعصاب أكثر مما تتأخر في القاءها الى النار . كان يعلم ان اي زلة في الاشارة الى الماضي، أو اي طيش في الحنين قد يثير في قلبها ترسبات قديمة، ومع انه كان يشعر بانها ستعيد اليه مئة رسالة قبل ان تتجرأ على فتح الرسالة الأولى، إلا انه تمنى ألا يحدث ذلك ولو لمرة واحدة . وهكذا وضع مخططه بكل تفاصيله كما في معركة حاسمة : كل شيء يجب ان يكون مختلفا ليبعث فضولات جديدة، ووساوس جديدة وآمالا جديدة، في امرأة عاشت حياة كاملة على اتساعها . لا بد له من جعل الأمر حلماً لا معقولا، قادراً على منحها الشجاعة الكافية لتلقي الى القمامة باعراف طبقة لم تكن هي طبقتها الاصلية، ولكنها انتهت الى الاندماج فيها وجعلها طبقتها اكثر من أي طبقة اخرى . كان عليه ان يعلمها التفكير بالحب على انه حالة غير وسيطة لأي شيء، بل هو منشأ ومستقر بحد ذاته .

لقد كان من القناعة بحيث انه لم يعد ينتظر رداً فورياً، بل اكتفى بالا تعاد اليه الرسالة . ولم تعد، كما لم تعد الرسالة التالية . وكلما مرت الأيام كانت اشواقه تتأجج، وكلما ازدادت الايام التي تمر كانت آماله بالرد تزداد . كان تواتر رسائله مشروطاً بمهارة أصابعه : بدأ برسالة واحدة في الاسبوع أول الأمر، ثم رسالتين، الى ان تمكن اخيراً من كتابة رسالة في كل يوم . ولقد اثلج صدره التطور الذي حققه البريد بالمقارنة مع زمانه، حين كان يعمل رافع أعلام، لانه لم يكن مستعداً للمغامرة بالظهور في مكتب البريد كل يوم كي يبعث رسالته الى الشخص ذاته، ولا لارسالها مع أحد قد يحصيها عليه . أما الآن، فمن السهل ارسال موظف ليشتري الطوابع البريدية لشهر بكامله، ثم القاء الرسالة في واحد من صناديق جمع الرسائل الثلاثة الموزعة في المدينة القديمة . وسرعان ما ادخل تلك المهمة في روتينه اليومي : كان ينتهز ساعات ارقه ليكتب، واثناء ذهابه الى المكتب في اليوم التالي، يطلب من السائق التوقف للحظة أمام

صندوق بريد معلق عند ناصية أحد الشوارع، فينزل بنفسه ويلقي الرسالة فيه. لم يسمح للسائق أبداً القيام بهذا العمل بدلا منه، رغم انه طلب ذلك في صباح يوم ماطر. وصار يحتاط أحياناً فيرسل مجموعة رسائل في الوقت ذاته بدلا من رسالة واحدة، كي يبدو الأمر اكثر طبيعية. ولم يكن السائق يعلم بكل تأكيد، ان الرسائل الاخرى ليست إلا اوراق بيضاء يبعثها فلورنتينو اريثا بنفسه لنفسه، لانه لم يكن يرتبط بمراسلة خاصة مع أحد، باستثناء تقريره الذي يبعثه كوصي في اواخر كل شهر الى والديّ اميركا فيكونيا ويضمنه انطباعاته الشخصية حول سلوك الصغيرة، ومعنوياتها وصحتها، وتقدمها المطرد في الدراسة.

أخذ يرقم الرسائل منذ الشهر الأول، وصار يبدأها بملخص للرسائل السابقة كما هو الحال في روايات الصحف المسلسلة، خشية ألا تنتبه فيرمينا داثا إلى ان الرسائل مترابطة ببعضها إلى حد ما. وحين أصبحت الرسائل يومية، استبدل مغلفات الحداد التي كان يستخدمها بمغلفات بيضاء وطويلة، مما منحها مظهر الرسائل التجارية الغامض والمتواطيء. حين بدأ يبعث رسائله كان مستعداً لاخضاع صبره لتجربة اكبر، الى ان يجد على الأقل دليلا قاطعاً بانه يضيع وقته بهذا الاسلوب الوحيد الذي استطاع تصوره. وانتظر فعلا دون الاحساس بالقلق الذي كان يسببه له الانتظار في شبابه.. انتظر بعناد شيخ اسمنتي ليس لديه ما يفكر فيه ولا ما يفعله في شركة ملاحة نهرية كانت تبحر وحدها في ذلك الحين مدفوعة برياح مواتية، اضافة الى يقينه بانه سيكون حياً في الغد، آجلا أو آبداً، حين تقتنع فيرمينا داثا اخيراً بانه لا علاج لجزعها كأرملة متوحدة إلا بانزال جسور حصنها له.

وتابع اثناء ذلك حياته المعتادة. متهيئاً لتلقي ردٍّ ايجابي. بدأ بأعمال ترميم جديدة في البيت ليكون جديراً بمن يمكن اعتبارها صاحبته وسيدته منذ تم شراؤه. وتردد عدة مرات على بروديثيا بيترا، كما وعدها، ليثبت لها بانه يحبها رغم اثار السن، في وضح النهار، وليس في ليالي خذلانه فقط. وتابع المرور مقابل بيت اندريه بارون الى ان وجد نور الحمام مطفأ، وحاول تخدير نفسه في حماقة من حماقات السرير كي لا يفقد قدرته على الحب، حسب خرافة اخرى من خرافاته التي لم يجد ما ينقضها حتى ذلك الحين، والقائلة بأن الجسد يستمر ما دام صاحبه مواظباً.

كانت علاقته باميركا فيكونيا هي العائق الوحيد. لقد ثابر على ارسال السائق لاحضارها من المدرسة الداخلية في الساعة العاشرة من صباح أيام الآحاد، لكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله بها خلال عطلة نهاية الاسبوع. ولقد أحست بالتغير حين لم يبدِ اهتماماً بها في المرة الأولى. كان يعهد بها للخادمات كي يرافقنها الى السينما المسائية، ولمشاهدة الدمى المتحركة في حديقة الأطفال، والى اليانصيبات الخيرية، او يدعوها الى برامج آحاد احتفالية مع

زميلات اخريات لها من المدرسة كي لا يضطر لمرافقتها الى الجنة السرية وراء المكاتب، حيث كانت تود الذهاب دوماً مذ أخذها هناك أول مرة. ولم ينتبه وهو في غيبوبة حلمه الجديد، الى ان النساء قد يصبحن راشدات في ثلاثة أيام، بينما انقضت ثلاث سنوات منذ استقبلها في بويرتو بادري حين جاءت في السفينة الشراعية المزودة بمحرك. ورغم كل محاولاته لاضفاء الحلاوة على الوضع الجديد، إلا ان التبدل الذي طرأ كان قاسياً بالنسبة لها، لكنها لم تستطع تصور سبب هذا التبدل. يوم قال لها في مقهى المثلجات انه سيتزوج، كاشفاً لها بذلك عن الحقيقة، عانت صدمة ذعر عابرة، لكن الأمر بدا لها بعد ذلك احتمالا لا معقولا ما لبثت ان نسيته تماماً. لكنها سرعان ما أيقنت انه يتصرف كما لو كان ذلك صحيحا، بمراوغة لا تفسير لها، وكما لو لم يكن اكبر منها بستين سنة، وانما أصغر منها بستين سنة.

وفي مساء أحد أيام السبت، وجدها فلورنتينو اريثا وهي تحاول الكتابة على الآلة الكاتبة في غرفة نومه، وكانت تفعل ذلك بشكل لا بأس به، اذ انها تتلقى في المدرسة دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة. كانت قد كتبت ما يزيد على نصف صفحة، وكان من السهل افراز عبارة من بعض الفقرات تكشف عن حالتها المعنوية. انحنى فلورنتينو اريثا فوق كتفها ليقرأ ما تكتبه، فاختلجت بحرارته الرجولية، ونفسه المتقطع، وعطر ملابسه، الذي هو عطر وسادته ذاته. لم تعد تلك الطفلة حديثة الوصول التي كان يعريها من ثيابها قطعة قطعة بخدع أطفال: هذا الحذاء أولا للدب، ثم هذه البلوزة للكلب، ثم هذا السروال الداخلي المزين بالازهار للأرنب. والآن قبلة حلوة سيطبعها البابا على هذه الحمامة الصغيرة. لا: انها الآن امرأة مكتملة الانوثة تحب ان تمسك زمام المبادرة. واصلت الكتابة باصبع واحدة من يدها اليمنى، وبحثت باليد اليسرى عن ساقه باللمس.. استكشفته، ووجدته، وأحست به ينبعث، ينمو، يتنهد بشوق، فتعثر تنفسه كشيخ وصار ثقيلا. كانت تعرفه: فمنذ هذه اللحظة سيفقد السيطرة على نفسه.. ستتفكك مفاصله.. سيصبح تحت رحمتها، ولن يجد سبيلا للرجوع قبل ان يصل الى النهاية. قادته من يده الى السرير، كما تقود ضريراً بائساً في الشارع، وعرته من ثيابه قطعة قطعة برقة خبيثة، رشت ملحاً لذوقه، وبهاراً ذا رائحة، وفص ثوم، وبصلة مفرومة، وعصير ليمونة، وورقة غار، الى ان تبلته تماماً في الصينية وجهزت الفرن بدرجة الحرارة المناسبة. لم يكن في البيت أحد. فالخادمات خرجن، وعمال البناء والنجارين الذين كانوا يرممون البيت لا يشتغلون أيام السبت: كان العالم بأسره لهما. لكنه خرج من غيبوبته وهو على شفير الهاوية، فأزاح يدها ونهض قائلا بصوت مرتعش:

ـ حذار، لا توجد هنا موانع للحمل.

بقيت مستلقية في الفراش لوقت طويل، وهي غارقة في التأمل، وحين رجعت الى المدرسة الداخلية، قبل ساعة من الموعد، كانت قد تجاوزت الرغبة بالبكاء، وركزت حاسة شمها وشحذت اظافرها لتجد اثار الأرنبة البرية المختفية التي قلبت لها حياتها رأساً على عقب. اما فلورنتينو اريثا، فقد أقدم بالمقابل على ارتكاب خطأ آخر من أخطاء الرجال: ظن بانها قد اقتنعت بعدم جدوى نواياها وقررت نسيانه.

كان غارقاً في شؤونه. وحين لم يتلق أية إشارة، بعد مرور ستة شهور، وجد نفسه يتقلب في السرير حتى الفجر، تائهاً في صحراء أرق مختلف. كان يفكر بان فيرمينا داثا قد فتحت الرسالة الأولى لمظهرها البريء، وتمكنت من رؤية المطلع المعروف لها من رسائل اخرى غابرة، وألقت بها في محرقة القمامة دون ان تتكلف مشقة تمزيقها. وكان يكفيها ان ترى مغلف الرسائل التالية لتحكم عليها بالمصير نفسه دون ان تفتحها، وهكذا حتى نهاية الازمان، فيما هو يصل الى نهاية تأملاته المكتوبة. لم يكن يصدق بان هناك امرأة قادرة على مقاومة فضول نصف سنة من الرسائل دون ان تعرف حتى لون الحبر الذي كتبت به. ولكن اذا كان من وجود لامرأة من هذا النوع، فلا يمكن إلا أن تكون هي وحدها.

بدأ فلورنتينو اريثا يشعر بأن زمن الشيخوخة ليس تياراً افقياً، وانما خزاناً مثقوب القعر تتسرب منه الذاكرة. كانت قريحته تُستنفد. وبعد عدة أيام من التجوال في حي لامانغا، ادرك ان ذلك الاسلوب الشبابي لن يتمكن من تحطيم الابواب المحكومة بالحداد. وفي صباح أحد الأيام، وبينما هو يبحث عن رقم في دليل الهاتف، وجد مصادفة رقمها. اتصل بها. ورن الجرس مرات كثيرة، واخيراً تعرف على الصوت، جدياً وأبح: «من؟». أعاد وضع السماعة دون ان يتكلم، لكن البعد اللانهائي لذلك الصوت الغائم اعاد التماسك لمعنوياته.

في أحد هذه الايام، احتفلت ليونا كاسياني بعيد ميلادها، ودعت مجموعة محدودة من الاصدقاء الى بيتها. كان هو ساهياً فلوث ملابسه بصلصة الدجاج. غمست طرف الفوطة في كأس الماء ومسحت طية سترته، ثم وضعت له الفوطة كمريلة لتحول دون وقوع حادث اكبر: فبدا كرضيع هرم. ولاحظت انه نزع نظارته عدة مرات خلال تناول الطعام ليمسحها بالمنديل، لان عينيه كانتا تدمعان. وعند تناول القهوة، غفا وهو يحمل الفنجان بيده، فحاولت انتزاع الفنجان دون ايقاظه، لكنه افاق خجلا: «كنت اريح بصري فقط». وقد نامت ليونا كاسياني تلك الليلة مذهولة وهي تفكر كيف ان الشيخوخة أخذت تبدو عليه بوضوح.

في الذكرى الأولى لموت خوفينال اوربينو، بعثت اسرته ببطاقات دعوة لصلاة على ذكراه في الكتدرائية. كان فلورنتينو اريثا قد بعث في ذلك الحين الرسالة رقم مئة واثنتين وثلاثين دون

ان يتلقى اي رد، وهذا ما دفعه الى اتخاذ القرار الطائش بحضور الصلاة رغم انه لم يكن مدعواً. لقد كان حدثاً اجتماعياً باذخاً اكثر من كونه ذكرى مؤثرة. كانت مقاعد الصفوف الأولى محجوزة لورثة الألقاب الكبيرة، وكانت على قفا كل مقعد لوحة نحاسية تحمل اسم صاحبه. حضر فلورنتينو اريثا مع أول الضيوف ليجلس في مكان لا يمكن لفيرمينا داثا ان تمر دون ان تراه. وفكر بان أفضل المقاعد، بعد الاماكن المحجوزة، هي مقاعد القسم الأوسط، لكن عدد الحضور كان كبيراً للدرجة انه لم يجد مكاناً هناك أيضاً، فاضطر للجلوس في الصف المخصص للاخوة الفقراء. ومن هناك رأى فيرمينا داثا تدخل ممسكة بذراع ابنها. كانت ترتدي ثوباً مخملياً أسود يصل الى معصميها، ولا وجود فيه لأية حلية سوى مجموعة من الازرار المتتالية من العنق وحتى القدمين، فكان يبدو أشبه برداء قسيس، وكانت تضع ياقة ذات تخريمات قشتالية بدلا من القبعة ذات الخمار التي تستخدمها الارامل، وكثير من السيدات اللواتي يأملن بان يصبحن ارامل. كان لوجهها السافر بريق كبريق المرمر المعرق، وكانت عيناها الرمحيتان تعيشان حياة خاصة تحت الثريات الضخمة في ممر الكتدرائية الأوسط، وكانت تمشي باستقامة، وكبرياء، وسيطرة تامة على نفسها، حتى انها لم تكن لتبدو اكبر سناً من ابنها. استند فلورنتينو اريثا، الواقف، بأطراف أصابعه على المقعد الذي امامه الى ان مرت الاغماءة التي احس بها مرور الكرام، فقد شعر بأن المسافة الفاصلة بينهما ليست ست خطوات كما هي في الواقع، وانما هما في يومين مختلفين.

احتملت فيرمينا داثا طقوس الحفل في المقعد العائلي مقابل المذبح الكبير، ممضية معظم الوقت وهي واقفة، مثلما كانت تفعل عند حضورها حفلات الاوبرا. لكنها حطمت طقوس المراسم الدينية في النهاية، ولم تبق في مكانها لتتلقى تجديد العزاء، كما هي التقاليد السائدة، وانما شقت طريقها لتشكر كل واحد من المدعوين: انها لفتة تجديدية تتفق تماماً مع اسلوبها في الحياة. صافحت الموجودين هنا وهناك الى ان وصلت الى مقاعد الاقارب الفقراء، ثم التفتت اخيراً فيما حولها لتتأكد من انها لم تنس أحداً تعرفه. أحس فلورنتينو اريثا حينئذ ان ريحاً غير مألوفة قد أخرجته من جوه: لقد رأته. وفعلا، ابتعدت فيرمينا داثا عن مرافقيها بطلاقتها التي تتصرف بها في المجتمع، ومدت له يدها، وقالت بابتسامة شديدة الرقة:

- شكراً لحضورك.

لم تكن قد تلقت الرسائل وحسب، بل انها قرأتها كذلك باهتمام بالغ، ووجدت فيها اسباباً جدية للتأمل وللاستمرار في الحياة. كانت تجلس الى المائدة لتناول الفطور مع ابنتها حين تلقت الرسالة الأولى. فتحتها بفضول لكونها مكتوبة على الآلة الكاتبة، واتقدت وجنتاها بتورد سريع حين تعرفت على الحروف الاولى من اسم صاحب التوقيع. لكنها سيطرت على

نفسها في الحال وخبأت الرسالة في جيب مريلتها. قالت: «انها رسالة تعزية من الحكومة». فوجئت الابنة: «ولكنها وصلت كلها». فلم تتأثر هي: «وهذه واحدة اخرى». كانت تنوي احراق الرسالة فيما بعد، بعيداً عن أسئلة ابنتها، لكنها لم تستطيع مقاومة اغراء القاء نظرة عليها قبل ذلك. كانت تتوقع رداً جديراً برسالتها المليئة بالاهانات، والتي سببت لها ضيقاً منذ لحظة ارسالها، ولكنها حين رأت مطلع الرسالة التوقيري ونوايا الفقرة الاولى، ادركت ان شيئاً قد تبدل في الدنيا. سيطر عليها الذهول لدرجة انها حبست نفسها في حجرة النوم لتقرأها بهدوء قبل احراقها، وقرأتها ثلاث مرات دون ان تلتقط انفاسها.

كانت الرسالة تتضمن تأملات حول الحياة، والحب، والشيخوخة، والموت: أفكار طالما مرت مرفرفة كعصافير ليلية فوق رأسها، لكنها كانت تقذفها بنثارة ريش كلما حاولت امساكها. وها هي الآن واضحة، بسيطة، تماماً كما كانت تحب ان تقولها. وتألمت مجدداً لان زوجها ليس حياً لتناقشها معه، كما اعتادا ان يناقشا بعض الامور اليومية قبل النوم. وهكذا تكشف لها فلورنتينو اريثا مجهولا، ذا بصيرة لا تتفق مع رسائل الحب المحمومة في شبابه ولا مع سلوكه الغامض طوال حياته. كانت أقرب الى كلمات الرجل الذي بدا للعمة اسكولاستيكا بأنه ملهم بالروح القدس، فعاد هذا الخاطر ليفزعها كما أفزعها في المرة الاولى. وكان اكثر ما ساعد في تهدئتها على أي حال هو يقينها بأن رسالة الشيخ الحكيم تلك ليست محاولة لتكرار سفاهة ليلة المأتم، وانما طريقة جد نبيلة لمحو الماضي.

وجاءت الرسائل التالية لتبعث فيها الطمأنينة. لكنها أحرقتها على أي حال بعد ان قرأتها باهتمام متزايد، رغم انها كلما أحرقت الرسائل كانت تشعر برواسب احساس بالذنب ما تلبث ان تزيحها. وحين بدأت تتلقى الرسائل مرقمة، وجدت ذريعة أخلاقية لرغبتها في وقف اتلافها. لقد كانت نيتها الأولية، على أي حال، عدم الاحتفال بالرسائل لذاتها، وانما لانتظار ان تسنح فرصة لاعادتها الى فلورنتينو اريثا كي لا يفقد شيئاً يبدو لها انه ذا قيمة انسانية. ولكن الوقت كان يمضي والرسائل تتوالى، واحدة كل ثلاثة او اربعة أيام خلال سنة كاملة، ولم تعرف كيف تعيدها دون ان يبدو ذلك على انه صد من جانبها ما عادت ترغب في القيام به، ودون ان تجد نفسها مضطرة لشرح الامر في رسالة يمنعها كبرياؤها من كتابتها.

كانت تلك السنة كافية لان تعتاد على حياتها كأرملة. ولم تعد ذكرى الزوج النقية تشكل عائقاً أمام أعمالها اليومية، وتحول حضوره في افكارها الحميمة، وفي أبسط نواياها إلى حضور حارس، يراقبها دون ان يزعجها. وكانت تجده أحياناً، ليس كرؤيا، وانما بلحمه وعظمه، حيث تحتاج اليه حقاً. كان اليقين يلهمها بانه هنا، ما يزال حياً، انما دون نزواته كرجل، دون طلباته البطريركية، دون الحاجة المضنية لأن تحبه بنفس طقوس القبلات غير المناسبة

والكلمات الرقيقة التي يحبها بها. كانت تفهمه حينئذ أفضل مما فهمته وهو حي، فهمت قلق حبه، واستعجاله للعثور فيها على الأمن الذي كان يبدو انه ركيزة حياته العامة، والذي لم يحصل عليه في الواقع أبداً. ففي أحد الايام، صرخت به وهي في قمة يأسها: «ألا تشعر كم أنا تعيسة». فنزع نظارته بحركة من صميم حركاته، دون ان يتأثر، وأغرقها بماء عينيه الصبيانيتين الصافي، وألقى على كاهلها ثقل حكمته الذي لا يطاق بعبارة واحدة: «تذكري دائماً ان أهم شيء في زواج جيد ليس هو السعادة وانما الاستقرار». ومنذ أيام عزلتها الأولى كأرملة ادركت ان تلك العبارة لا تخفي التهديد المسكين الذي نسبته اليها يوم قالها، وانما هي الحجر القمري الذي خصص لهما معاً ساعات طويلة من السعادة.

كانت فيرمينا دائما، في رحلاتها الكثيرة عبر العالم، تشتري كل جديد يلفت نظرها. كانت ترغب الاشياء لانطباعها الأولي وكان زوجها يشاركها منطقها. ولقد كانت تلك الأشياء جميلة ونافعة ما دامت في بلدها المنشأ، في واجهات روما، وباريس، ولندن، أو في نيويورك ذلك الزمان المهتزة بالشارلستون، حيث بدأت ناطحات السحاب بالنمو، لكنها لا تحتمل تجربة فالسات شتراوس مع شحم الخنزير القاسي ومعارك الزهور في درجة حرارة تصل الى الاربعين في الظل. وهكذا كانت ترجع من رحلاتها ومعها نصف دسته من الصناديق المعدنية البراقة، المزودة بأقفال وزوايا نحاسية، تشبه نعوشاً خيالية. فتجد نفسها صاحبة وسيدة آخر عجائب الدنيا التي لم تكن مع ذلك تساوي ثمنها ذهباً إلا فى اللحظة السريعة التي يراها فيها أحد من عالمها المحلي لمرة واحدة. اذ انها مشتراه لهذا الغرض: كي يراها الاخرون مرة واحدة. لقد وعت لا جدوى صورتها العامة قبل ان تبدأ بالشيخوخة بزمن طويل، وكثيراً ما سُمعت تقول في البيت: «لا بد من التخلي عن كل هذه التفاهات التي لا تترك مكاناً للمعيشة». وكان الدكتور اوربينو يسخر من نواياها العقيمة، لانه يعرف ان الاماكن الشاغرة لن تفيد إلا لملئها من حديد. لكنها كانت تصر على موقفها، لانه لم يكن يوجد في الواقع مكان لأي شيء جديد، ولم يكن يوجد في أي مكان شيء صالح لشيء، كالقمصان المعلقة على مقابض الأبواب أو المعاطف الشتوية الأوروبية المدسوسة كيفما اتفق في خزائن المطبخ. وهكذا فانها كانت تنهض في صباح أحد الأيام بمعنويات عالية لتلقي إلى الأرض كل ما في الخزائن، وتفرغ الصناديق، وتجرد غرف المهملات، وتعلنها حرباً على اكوام الملابس التي شوهدت بما يكفي، والقبعات التي لم تلبسها أبداً لانها لم تجد فرصة مناسبة اثناء شيوع موضتها، والاحذية التي كان يحاكي بها فنانو اوروبا احذية الامبراطورات في حفلات تتويجهن، والتي كانت تقابل هنا باحتقار الآنسات النبيلات لانها تشبه تماماً الاحذية التي تشتريها الزنجيات من السوق لاستخدامها في البيت. وتبقى الشرفة الداخلية للبيت في حالة

طوارىء خلال فترة الصباح كلها، ويصبح التنفس في البيت امراً شاقاً بفعل الرائحة الحادة لكرات النفتالين. لكن الهدوء ما يلبث ان يعم بعد ساعات قليلة، اذ انها ترق لكل هذا الحرير المبعثر على الأرض، وكل هذا البر وكار الفائض مع بقايا الحرير المخرم، وكل ذيول الثعالب الزرقاء هذه المحكومة بالمحرقة.

وكانت تقول:

ـ ان احراقها، بينما هناك اناس كثيرون لا يجدون ما يأكلونه، هو خطيئة.

وهكذا كانت عملية الاحراق تتأجل. لقد تأجلت دوماً، وكل ما في الأمر هو ان أماكن الاشياء كانت تتبدل، فتنتقل من مواقع الامتياز إلى الحظائر القديمة التي تحولت إلى مستودع للتصفيات، بينما تبدأ الاماكن التي أخليت بالامتلاء من جديد، كما كان يقول هو بالضبط، إلى أن تفيض باشياء تعيش للحظة زهو ثم تمضي لتموت في الخزائن، ريثما يحين موعد التصفية التالية. كانت تقول: «يجب ابتداع ما يمكن عمله بالاشياء التي لم تعد نافعة لشيء والتي لا يمكن الالقاء بها كذلك». انها هكذا: ترتعد للنهم الذي تغزو به الاشياء اماكن المعيشة، محتلة مكان البشر، وزاجة بهم في الزاويا، إلى ان تضعها فيرمينا داثا حيث لا تبدو للعيان. لم تكن امرأة مرتبة اذن كما يشاع عنها، وانما كان لديها منهج خاص ويائس لتبدو كذلك: انها تخفي الفوضى. ولقد اضطروا يوم وفاة خوفينال اوربينو إلى افراغ نصف محتويات المكتب، وتكويم الاشياء في غرف النوم ليجدوا مكاناً يسهرون فيه على الميت.

مرور الموت من البيت جاء بالحل. فما ان احرقت فيرمينا داثا ملابس زوجها، حتى لاحظت ان نبضها لم يرتعش، فتابعت بالنبض ذاته ايقاد المحرقة بين فترة واخرى، ملقية اليها بكل شيء، القديم والجديد، دون ان تفكر بحسد الأغنياء ولا بالآم الفقراء الذين يموتون جوعاً. ثم أمرت اخيراً بقطع شجرة المانغا من جذورها حتى لا يبقى أي أثر من اثار المحنة، وأهدت الببغاء حية إلى متحف المدينة الجديد. وعندئذ فقط تنفست حسب رغبتها في بيت كالبيت الذي حلمت به دوماً: فسيح وبسيط ولها وحدها.

أقامت ابنتها اوفيليا معها لثلاثة شهور ثم رجعت إلى نيو اورليانز. وكان الابن يأتي مع اسرته لتناول غداء عائلي أيام الآحاد، وكلما اتيح له ذلك خلال أيام الاسبوع. وبدأت صديقات فيرمينا داثا المقربات يزرنها بعد اجتيازها ازمة الحداد، ويلعبن معها الورق مقابل الفناء المقفر، ويجربن اعداد اصناف جديدة من الطعام، ويطلعنها على اخبار الحياة الخفية للعالم الجشع الذي ما زال قائماً من دونها. ومن اكثرهن مواظبة على زيارتها كانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو، وهي ارستقراطية على الطريقة القديمة، كانت تربطها بها صداقة متينة

من قبل، وقد تقربت منها اكثر بعد وفاة خوفينال اوربينو. ولم تكن لوكريثيا دل ريال المخدرة بالتهاب المفاصل والساخطة على حياتها السيئة، خير رفيقة لها وحسب، بل انها كانت تستشيرها حول المشاريع التمدنية والدنيوية التي يجري الاعداد لها في المدينة، مما يجعلها تشعر بقيمتها لنفسها وليس لظل زوجها الحامي، رغم انها لم ترتبط به أبداً كارتباطها به حينئذ، فقد نزعوا عنها اسمها الذي كانوا ينادونها به دوماً، لتصبح أرملة اوربينو.

لم تكن فيرمينا داثا قادرة على تصور الأمر، لكنها كلما اقتربت من الذكرى الأولى لوفاة زوجها، كانت تشعر بانها تلج عالماً ظليلاً ورطباً وساكناً: انها الابكة التي لا مخرج منها. لم تكن واعية حينئذ، كما لن تعي لعدة سنوات، كم ساعدتها التأملات التي كان يكتبها فلورينتينو اريثا على استعادة سلامها الروحي. فالرسائل، بمطابقتها مع تجاربها، هي التي اتاحت لها فهم حياتها بالذات، واعانتها على انتظار تقدم الشيخوخة وباطمئنان وهدوء. وقد كان اللقاء في ذكرى وفاة الزوج فرصة دبرتها العناية الالهية لافهام فلورينتينو اريثا بانها هي أيضاً وبفضل رسائله المشجعة، كانت مستعدة لمحو الماضي.

بعد يومين من ذلك، تلقت منه رسالة مختلفة: مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر، واسمه الكامل موضح على المغلف. كان الخط هو خط رسائل الشباب الأولى نفسه، والعبارات الغنائية نفسها، مسبوكة في مقطع شكر بسيط لاهتمامها بمصافحته في الكتدرائية. وبقيت فيرمينا داثا تفكر بها بحنين قلق بعد عدة أيام من قراءتها، حتى انها سألت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو، دون اي مناسبة، اذا ما كانت تعرف فلورينتينو اريثا، صاحب السفن النهرية. وأجابت لوكريثيا ان نعم: «يبدو انه شاذ ضائع». وأعادت سرد الرواية المتداولة بانه لم يعرف امرأة أبداً رغم انطلاقته الطيبة، وان له مكتباً سرياً يأخذ اليه الصبية الذين يلاحقهم ليلاً على أرصفة الميناء. كانت فيرمينا داثا قد سمعت هذه الاسطورة منذ أمد بعيد، ولكنها لم تصدقها يوماً ولم تولها اي اهتمام. اما حين سمعت لوكريثيادل ريال دل اوبيسبو، التي اشيع عنها يوماً انها ذات امزجة غريبة، ترددها بهذه القناعة، لم تستطع مقاومة رغبتها بوضع الأمور في نصابها. فروت لها بانها كانت تعرف فلورينتينو اريثا منذ الصغر. وذكرتها بان امه كانت تملك دكان خردوات في شارع لاس فينتاناس، وانها كانت تشتري كذلك القمصان والشراشف القديمة لتنسل خيوطها وتبيعها كقطن طوارىء اثناء الحروب الاهلية. وختمت حديثها بقول صحيح: «انه رجل شريف، كون نفسه بنفسه». كانت محتدة حداً دفع لوكريثيا لان تسحب ما قالته: «ثم انهم في آخر المطاف يقولون عني أنا أشياء مشابهة». لم يكن لدى فيرمينا داثا فضول لتسألها عن تلك الاشياء لانها كانت تقوم بدفاع مؤثر عن رجل لم يكن اكثر من ظل في حياتها. تابعت التفكير فيه، وخصوصاً حين كانت تصلها رسالة منه وبعد مضي

اسبوعين من الصمت، أيقظتها احدى الخادمات من قيلولتها لتهمس لها منذرة :

ـ سيدتي ، ها هو دون فلورينتينو هنا.

هاهو هنا. كانت ردة فعل فيرمينا داثا الأولى صدمة ذعر. وفكرت ان لا ، فليرجع في يوم آخر، وانها ليست قادرة على استقباله، وانه ليس لديها ما تتحادث واياه به. لكنها استردت انفاسها في الحال وأمرت بادخاله إلى الصالة وتقديم القهوة له ريثما تستعد لمقابلته. كان فلورينتينو اريثا ينتظر عند الباب الخارجي، متقداً تحت شمس الساعة الثالثة الجهنمية، ولكنه كان مسيطراً تماماً على اعصابه وممسكاً الاعنة بقبضته. فهو موقن من انها ستعتذر اعتذاراً لطيفاً عن استقباله، وكان يقينه هذا يمنحه الطمأنينة. لكن القرار الذي نُقل اليه هزه حتى النخاع، وعند دخوله الى عتمة الصالة الرطبة، لم يتسع له الوقت للتفكير بالمعجزة التي يعيشها، لان أحشاءه امتلأت فجأة بانفجار رغوة مؤلمة. جلس حابساً أنفاسه، تحاصره ذكرى ذرق العصفور المشؤوم على رسالته الغرامية الأولى، وبقي متجمداً في العتمة ريثما تفارقه القشعريرة، مستعداً لتقبل أي نكبة قد تلحق به في هذه اللحظة، باستثناء تلك المحنة الظالمة.

لقد كان يعرف نفسه جيداً: ويعلم انه رغم اصابته بالامساك المزمن، إلا ان امعاءه قد خانته في اماكن عامة ثلاث أو أربع مرات خلال حياته الطويلة، ولم يجد بداً من الاستسلام لجسده في تلك المرات الثلاث أو الأربع. وكان يرى في هذه المناسبات فقط، وفي مناسبات اخرى شديدة الحرج، حقيقة العبارة التي يحب ترديدها مازحاً : «انا لا أومن بالرب، ولكنني أخشاه». ولم يكن له حينئذ متسع للشك، فحاول تلاوة أي صلاة يذكرها، لكنه لم يجد شيئاً في ذاكرته. لقد علمه زميل له، حين كان طفلاً، بضع كلمات سحرية لاصابة العصافير بحجر «تك تاك تك تاك. ان لم اصبك سأدوخك» وقد جربها حين ذهب إلى الجبل لأول مرة حاملاً مقلاعاً جديداً، فهوى العصفور مصعوقاً. وأعاد العبارة بحرارة كحرارة الصلاة، لكنه لم يصل إلى النتيجة ذاتها. ثارت احشاؤه بحركة ملتوية وكأن فيها محوراً محلزناً رفعه عن مقعده، وانبعثت قرقرة من رغوة بطنه المتعاظمة الكثافة والألم، تركته مغطى بعرق مثلج. ارتعدت الخادمة التي حملت اليه القهوة لسيماء الميت التي بدت عليه. فتنهد قائلاً : «انه الحر». فتحت النافذة معتقدة انها تُسعده بذلك، لكن شمس الأصيل لفحت وجهه، مما اضطرها لاغلاقها من جديد. احس بانه عاجز عن الاحتمال لدقيقة اخرى، حين ظهرت فيرمينا داثا وهي لاتكاد تُرى في العتمة، وارتعدت لرؤيته على هذا الحال. فقالت له :

ـ يمكنك خلع السترة.

لكن ما كان يؤلمه اكثر من التواءات المغص القاتلة هو خوفه من ان تتمكن من سماع قرقرة

أحشائه. واستطاع الصمود للحظة قال فيها ان لا، وانه انما جاء ليسأل متى يمكنها استقباله فقط. فقالت وهي ما تزال واقفة وقد اصابها الذهول: « هاأنتذا هنا». ودعته للدخول إلى شرفة الفناء حيث الحر أقل. فرفض بصوت بدا لها وكأنه تنهدة أسف:

ـ ارجوك ان تؤجلي اللقاء ليوم غد.

تذكرت ان يوم غد هو الخميس، يوم الزيارة المنتظمة للوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو، لكنها عرضت له حلاً نهائياً: «بعد غد الساعة الخامسة». شكرها فلورينتينو اريثا، واشار لها بحركة وداع متعجلة بقبعته، وانصرف دون ان يتذوق القهوة. بقيت حائرة في وسط الصالة، دون ان تفهم ما الذي حدث، إلى ان سمعت فرقعة السيارة في الشارع. بحث فلورينتينو اريثا حينئذ عن الوضع الأقل ألماً في مقعد السيارة الخلفي، وأغمض عينيه وأرخى عضلاته، واستسلم لمشيئة الجسد. وأحس حينئذ وكأنه يولد من جديد. أما السائق، الذي لم يعد يفاجأ بشيء بعد عمله لسنوات طويلة في خدمته، فقد حافظ على عدم تأثره. لكنه حين فتح باب السيارة أمام البيت، قال له:

ـ حذار يا دون فلورو، قد تكون الكوليرا.

لكن الأمر كان كالمعتاد. ولقد حمد فلورينتينو اريثا الله يوم الجمعة في الساعة الخامسة تماماً، حين قادته الخادمة عبر الصالة المظلمة إلى شرفة الفناء، ووجد فيرمينا داثا جالسة وراء طاولة معدة لشخصين. عرضت عليه ان يتناول الشاي أو الشوكولاته أو القهوة، فطلب فلورينتينو اريثا قهوة، ساخنة جداً وقوية جداً. وأمرت هي الخادمة قائلة : «ولي الشراب المعتاد». الشراب المعتاد هو شراب قوي محضر من تشكيلة متنوعة من الشاي الشرقي، يساعدها في رفع معنوياتها بعد القيلولة. حين انتهت من تناول ابريق الشاي، وانتهى هو من ابريق القهوة، كانا قد خاضا واجتازا عدة موضوعات، ليس لانها كانت تهمهما كثيراً، وانما لتجنب الدخول في المسائل الاخرى التي لم يكن أي منهما ليتجرأ على ملامستها. كلاهما كان مرتعداً، لا يعرف ما الذي يفعلانه بعيداً عن شبابهما، على شرفة بلاطها كرقعة الشطرنج في بيت ليس ملكهما ولا يزال يعبق برائحة ازهار الميت. انهما يجلسان معاً للمرة الأولى، لا تفصل بينهما سوى هذه المسافة الضيقة، ولديهما فائض من الوقت ليريا بعضهما بهدوء بعد نصف قرن من الانتظار. ولقد رأى كل منهما الآخر كما هما: عجوزان يترصدهما الموت، لا يجمعهما شيء سوى ذكرى ماض غابر لم يعد ملكاً لهما وانما لشابين مختفيين كان يمكن أن يكونا حفيديهما. وفكرت بانه سيقتنع اخيراً بعدم واقعية حلمه، وهذا سيخلصه من سفاهته.

وللحيلولة دون لحظات صمت غير مريحة أو أحاديث غير مرغوبة، وجهت اليه اسئلة محددة حول السفن النهرية. ولم تكد تصدق انه هو، صاحب السفن، لم يسافر فيها إلا مرة

واحدة، منذ سنوات بعيدة، حين لم تكن له أية علاقة بالشركة. ولم تكن هي تعرف النهر أيضاً. اذ ان زوجها كان يمقت الاهواء الانديزية، ويعلل ذلك بذرائع متنوعة: مخاطر الارتفاعات على القلب، المخاطرة بالاصابة بذات الرئة، نفاق الناس. وهكذا كانا يعرفان نصف العالم ولكنهما لا يعرفان بلدهما. كانت هناك يومئذ طائرة مائية من نوع جنكرز تنطلق من قرية إلى قرية في حوض نهر مجدلينا، كجرادة من الألمنيوم، تتسع لطاقمها المؤلف من شخصين، ولستة مسافرين اضافة إلى اكياس البريد. وقد علق فلورينتينو اريثا قائلاً: «انها اشبه بتابوت طائر في الجو». وكانت هي قد شاركت في الرحلة الأولى بالمنطاد، ولم تعان أية صعوبة، ولكنها لاتكاد تصدق اليوم انها هي نفسها التي تجرأت على تلك المغامرة، وقالت: «الأمر مختلف». تعني بذلك انها هي التي تغيرت، وليس أساليب السفر.

كان أزيز الطائرات يفاجئها أحياناً. فمع انها رأتها تمر على ارتفاع منخفض، وتقوم بمناورات بهلوانية، في الاحتفال بالذكرى المئوية لموت بطل التحرير، ورغم انها رأت احدى تلك الطائرات، سوداء مثل طائر رخمة عظيم، وهي تلامس اسطح بيوت لامانغا، مخلفة جزءاً من جناحها عالقاً بشجرة مجاورة، قبل ان يبقى هيكلها معلقاً بأسلاك الكهرباء، إلا ان فيرمينا داثا لم تستوعب مع ذلك حقيقة وجود الطائرات. بل انها لم تشعر بالفضول في السنوات الاخيرة للذهاب إلى خليج مانثانييو، حيث كانت تطير الطائرات المائية بعد ان تقوم زوارق خفر السواحل بابعاد مراكب الصيادين وزوارق اللهو، التي كانت اعدادها في ازدياد. وقد اختاروها وهي عجوز بهذه الحالة لاستقبال تشالز ليندبيرغ بباقة زهور حين جاء بطائرته في رحلة نوايا حميدة، ولم تستطع ان تفهم كيف كان لرجل بهذه الضخامة، وهذه الشقرة، وهذا الجمال ان يرتفع في الجو بجهاز يبدو وكأنه من الصفيح المجعد، يقوم ميكانيكيان بدفعه من ذيله لمساعدته على الصعود. ولم يكن رأسها ليتسع لفكرة وجود طائرات اكبر من تلك بقليل تتسع لثمانية أشخاص. بينما سمعت بالمقابل ان السفن النهرية هي متعته خالصة لانها لاتتأرجح كسفن البحر. ولكن لهذه السفن مخاطرها الاقسى، كاصطدامها بالمصاطب الرملية في قاع النهر، وتعرضها لهجمات قطاع الطرق.

وبين لها فلورينتينو اريثا ان هذه ليست إلا اساطير من ازمنة غابرة: ففي السفن الحالية صالة رقص، وقمرات واسعة وفخمة كأنها غرف الفنادق مزودة بحمامات خاصة ومراوح كهرابائية، كما انه لم يحدث أي هجوم مسلح على السفن النهرية منذ انتهاء الحرب الأهلية الاخيرة. وبين لها كذلك، بسعادة من حقق نصراً شخصياً، ان هذا التقدم يعود قبل كل شيء إلى حرية الملاحة التي دعا اليها هو، مما شجع المنافسة: فبدلاً من شركة واحدة وحيدة، كما كان الحال من قبل، أصبحت هناك ثلاث شركات نشيطة ومزدهرة. ومع ذلك

فان تقدم الطيران السريع يشكل خطراً حقيقاً على الجميع. حاولت مواساته: فالسفن ستبقى دائماً، لان المجانين المستعدين لحشر أنفسهم في جهاز يبدو مناقضاً للطبيعة ليسوا بالكثيرين. واخيراً تحدث فلورينتينو اريثا عن التقدم الذي احرزه البريد، سواء في أساليب نقله أو توزيعه، آملاً بذلك ان تحدثه عن رسائله. لكنه لم يتوصل لما أراد.

وجاءت الفرصة بعد قليل وحدها. كانا قد ابتعدا كثيراً عن الموضوع، حين قاطعتهما احدى الخادمات لتسلم فيرمينا داثا رسالة تقلتها حينئذ من البريد المديني الخاص، الذي انشىء مؤخراً، وكان يستخدم في توزيع الرسائل اسلوب توزيع البرقيات ذاته. ولم تجد هي نظارة القراءة، كما يحدث معها دائماً. فقال لها فلورينتينو اريثا برزانه:

ـ لا لزوم لذلك. فهذه الرسالة مني.

وكانت كذلك فعلاً. لقد كتبها في اليوم السابق، وهو يعاني حاله انقباض رهيبة لانه لم يستطع تناسي خجله من زيارته الأولى الفاشلة. وكان يعتذر في تلك الرسالة عن سفاهته بالاقدام على زيارتها دون اذن مسبق، ويبدي تخليه عن نية العودة لزيارتها. لقد القاها في صندوق البريد دون ان يفكر مرتين، وحين تروى بالامر كان الوقت قد فات لاسترادها لكن هذه الشروحات كلها لم تبد له ضرورية، فاكتفى بالطلب إلى فيرمينا داثا ان تتفضل بعدم قراءة الرسالة.

فقالت:

ـ طبعاً. فالرسائل في نهاية المطاف هي ملك لمن كتبها. أليس كذلك؟

فخطا خطوة واثقة بقوله:

ـ أجل. ولذا فانها أول شيء يعاد عند وقوع القطيعه.

مرت على اشارته دون اهتمام، وأعادت له الرسالة قائلة: «من المؤسف انني لن أستطيع قراءتها، فقد كانت الرسائل الاخرى ذات نفع كبير لي». اخذ نفساً عميقاً عندما فوجىء بانها قالت بشكل عفوي اكثر بكثير مما كان ينتظره منها، وقال لها: «لايمكنك ان تتصوري مدى سعادتي لمعرفة ذلك». لكنها غيرت الموضوع، ولم يتمكن من العودة اليه ثانية في بقية المساء.

ودعها بعد الساعة السادسة، حين بدأوا يضيئون أنوار البيت. كان يشعر بثقة اكبر، ولكنها ثقة بلا أوهام، لانه لم ينس طبع فيرمينا داثا المتقلب وردود فعلها المفاجئة حين كانت في العشرين، ولم يكن لديه من الاسباب ما يدفعه للتفكير بانها قد تغيرت. ولهذا تجرأ على سؤالها بمذلة صريحة ان كان يستطيع العودة في يوم آخر، وجاء الجواب ليفاجئه مجدداً.

قالت:

- عد متى شئت. فأنا وحيدة في اغلب الاحيان.

بعد أربعة أيام، أي يوم الثلاثاء، عاد دون ابلاغ مسبق، ولم تنتظر هي ان يقدموا لها الشاي لتحدثه عن مدى النفع الذي اصابته من رسائله. فقال لها بانها ليست رسائل بالمعنى الدقيق للكلمة، وانما هي أوراق متفرقة من كتاب كان يتمنى تأليفه. وكانت هي قد فهمت الرسائل على هذا النحو أيضاً، لدرجة انها فكرت باعادتها اليه، اذا هو لم ير ذلك على انه صد من جانبها، كي يحمل تلك الرسائل إلى مصير أفضل. تابعت الحديث عن الدور الطيب الذي قدمته اليها الرسائل في لحظة قاسية من حياتها، وكانت تقول ذلك باندفاع شديد، وعرفان بالجميل شديد، وربما بعاطفة شديدة أيضاً، مما جعل فلورينتينو اريثا يتجرأ على التقدم باكثر من خطوة واثقة: اذ انه قفز قفزة قاتلة بقوله:

- لقد كنا نتخاطب دون كلفة من قبل.

كانت كلمة من قبل كلمة محرمة. وأحست بمرور ملاك الماضي الوهمي، وحاولت تفاديه. لكنه توغل اكثر: «أعني في رسائلنا التي تبادلناها من قبل». استاءت، وكان عليها القيام بمجهود جدي كي تخفي استياءها. لكنه انتبه للأمر، وأدرك ان عليه التقدم بحذر، وتلمس مواقع اقدامه جيداً، رغم ان العثرة اطلعته على انها مازالت على شراستها التي كانت عليها في شبابها، لكنها تعلمت ان تكون شرسة برقة.

قال:

- أعني ان هذه الرسائل هي شيء آخر مختلف تماماً.

فقالت:

- كل شيء في الدنيا يتغير.

قال:

- أنا لم أتغير. وحضرتك؟

أوقفت فنجان الشاي في منتصف الطريق الى فمها، وزجرته بعينين استمرتا تلمعان بالحياة رغم القسوة. وقالت:

- لقد صار الأمر سيان. فقد اكملت اثنتين وسبعين سنة.

تلقى فلورينتينو اريثا الطعنة في القلب. وودّ العثور على جواب سريع كسرعة السهم وتلقائيته، لكن ثقل السن هزمه: لم يشعر أبداً بمثل هذا الارهاق في محادثة قصيرة كهذه. كان قلبه يؤلمه، وكانت كل ضربة منه ترتد دوياً معدنياً في شرايينه. أحس بانه شيخ، حزين، عديم النفع، وراودته رغبة ملحة في البكاء حتى لم يعد قادراً على البكاء. تناولا فنجان الشاي الثاني بصمت ثلمته الخواطر المنذرة، وحين عادت هي للتكلم، فعلت ذلك بان

توجهت إلى احدى الخادمات طالبة منها احضار حقيبة الرسائل. كاد ان يطلب منها الاحتفاظ بالرسائل، لان لديه نسخة كربون منها، لكنه فكر بان كشفه عن اتخاذه مثل هذا الاحتياط سيبدو عملاً غير نبيل. ولم يعد لديهما ما يتحدثان فيه. وقبل ان يودعها، اقترح ان يعود يوم الثلاثاء التالي في نفس الساعة. فسألته لماذا عليه ان يكون متلطفاً إلى هذا الحد. وقالت:

- لا أرى من معنى لهذه الزيارات.

فقال:

- أنا لم أفكر بان يكون لها أي معنى.

وعاد على أي حال في يوم الثلاثاء التالي، في الساعة الخامسة، ثم في جميع أيام الثلاثاء التالية، دون اعلان مسبق، لان الزيارة الاسبوعية دخلت في روتين كل منهما اعتباراً من نهاية الشهر الثاني. كان فلورينتينو اريثا يأتي حاملاً معه البسكويت الانكليزي لتناوله مع الشاي، والكستناء الملبس بالسكر، والزيتون اليوناني، وغيرها من لذائذ الصالونات الصغيرة التي يجدها في عابرات المحيطات التي تتوقف في الميناء. وفي أحد أيام الثلاثاء جاءها بصورتها الفوتوغرافية مع هيلديبراندا، التي التقطها لهما مصور بلجيكي منذ اكثر من نصف قرن، وكان قد اشتراها بخمسة عشر سنتافو من مزاد بطاقات بريدية في بوابة الكتبة العموميين. لم تستطع فيرمينا داثا ان تفهم كيف وصلت الصورة إلى هناك، كما لم يستطع هو فهم الأمر إلا على انه معجزة غرامية. وفي أحد الأيام، وبينما كان فلورينتينو اريثا يقطف وروداً من حديقته، لم يستطع مقاومة اغراء حمل وردة اليها في زيارته التالية. وكانت تلك مشكلة عويصة في لغة الزهور، لانها تتعلق بأرملة حديثة الترمل. فوردة حمراء، ترمز إلى العاطفة المتأججة، قد تعتبر اهانة لحدادها. أما الورود الصفراء التي ترى فيها إحدى لغات الزهور رمزاً لحسن الطالع، فهي في العرف الشائع تعبير عن الغيرة. ورغم انه سمع يوماً عن ورود تركيا السوداء، التي قد تكون الاكثر ملاءمة، إلا انه لم يستطع الحصول عليها ليُأقلمها مع الجو في حديقة بيته. لكنه غامر بعد تفكير طويل بحمل وردة بيضاء، كان اعجابه بها أقل من اعجابه بالزهور الاخرى، لانها بكماء لا تعني شيئاً. ولخوفه من أن يجد خبثُ فيرمينا داثا معنى لها، قام بتقليم اشواكها في اللحظة الاخيرة.

وجدت الوردة لديها صدى طيباً، على انها هدية بلا أية نوايا خفية. مما اثرى تقليد الثلاثاء بطقس جديد، حتى انه أصبح يجد مزهرية مملوءة بالماء في وسط طاولة الشاي الصغيرة لدى وصوله حاملاً الوردة البيضاء. وفي أحد أيام الثلاثاء، وفيما هو يضع الوردة، قال بطريقة بدت عرضية:

بوجهة نظرها او لتخفف من حدة الغضب. كما كانت قد تأسست في تلك الايام أيضا جريدة العدالة، وهي صحيفة مسائية هدفها الوحيد انتقاد العائلات ذات الالقاب الكبيرة، بالاسم الصريح وبلا أية اعتبارات، كرد من صاحب الجريدة على عدم قبول ابنائه كاعضاء في النادي الاجتماعي. ورغم نظافة حياتها، فقد كانت فيرمينا داثا تلتزم جانب الحذر حينئذ اكثر من أي وقت مضى في كل ما تقوله أو تفعله، حتى مع اصدقائها المقربين. وهكذا بقيت مرتبطة مع فلورينتينو اريثا بخيط الرسائل البائد. واصبح تبادل الرسائل ما بينهما كثيفا الى حد جعله ينسى ساقه المصابة، وعقوبة البقاء في السرير، وكل شيء اخر، ويكرس نفسه تماما للكتابة على طاولة متنقلة كتلك المستخدمة في المشافي لتقديم الطعام للمرضى.

رفعا الكلفة بينهما من جديد، وعادا لتبادل الاراء حول حياتهما كما كانا يفعلان في رسائلهما السابقة، لكن فلورينتينو اريثا حاول المضي ثانية بسرعة: كتب اسمها بوخز دبوس على وريقات زهرة كاميليا، وبعثها في رسالة، وبعد يومين أعيدت اليه دون أي تعليق. لم تستطع فيرمينا داثا منع ذلك: فالأمر كله كان يبدو لها كلعبة أطفال. وحين أصر فلورينتينو اريثا على استعادة ذكرى امسيات الاشعار الكئيبة في حديقة البشارة، ومخابيء الرسائل في الطريق الى المدرسة، ودروس التطريز تحت أشجار اللوز. وضعته في مكانه الطبيعي، وروحها تتألم، بسؤال بدا عرضيا وسط مجموعة اخرى من الاحاديث المطروقة: «لماذا تصر على الحديث في أمر لا وجود له؟». ثم أنبت فيما بعد عناده العقيم في عدم الرضوخ لشيخوخة طبيعية. وهذا هو حسب رأيها، سبب سقوطه واحباطاته الدائمة في تذكر الماضي. لم تكن تفهم كيف يمكن لرجل قادر على صياغة الافكار التي ساعدتها على تجاوز الترمل، ان يورط نفسه بتلك الطريقة الصبيانية حين يحاول تطبيق افكاره على حياته بالذات. فانقلبت الادوار، واصبحت هي حينئذ من حاولت تشجيعه ليرى المستقبل بعبارة لم يستطع فهمها في تسرعه الطائش: دع الزمن يمضِ وسنرى ما الذي يحمله، اذ لم يكن في يوم من الايام تلميذاً نجيبا كما كانت هي. ان قعوده الاجباري، ويقينه الذي كان يتضح اكثر فأكثر بتسرب الزمن، ورغبته المجنونة لرؤيتها، اكدت له ان مخاوفه من الزلل كانت اكثر اصابة ومأساوية مما توقعه. وبدأ يفكر لأول مرة بحقيقة الموت تفكيراً عقلانياً.

كانت ليونا كاسياني تساعده في الاستحمام واستبدال البيجاما مرة كل يومين، وتضع له الحقن الشرجية، والمبولة، وكمادات البابونج على قروح ظهره، وتجري له المساجات بارشاد الطبيب كي لا يسبب له انعدام الحركة مشاكل اخرى اسوأ. وكانت تحل محلها في هذه المهمات يومي السبت والأحد اميركا فيكونيا، التي كانت ستنهي دراستها كمعلمة في شهر كانون الاول من تلك السنة. وقد وعدها بايفادها في دورة عليا الى الاباما على نفقة الشركة

النهرية، وذلك ليكمّ فم صميره من جهة، وليتخلص من مواجهة تعنيفاتها التي لا تجد مناسبة لقولها، والتفسيرات التي يتوجب عليه ان يقدمها اليها من جهة اخرى. لم يتصور يوماً مدى معاناتها في ساعات ارقها في المدرسة الداخلية، وفي نهايات الاسبوع التي تقضيها بعيداً عنه، وفي حياتها من دونه، لانه لم يتصور أبداً كم كانت تحبه. وعلم من رسالة بعثتها إليه للمدرسة ان الموقع الاول الذي كانت تحتله دوما قد اصبح الاخير، وانها على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية. لكنه تناسى واجبه كوصي ولم يبلغ والديّ اميركا فيكونيا بالأمر، يمنعه احساس بالذنب يحاول التخلص منه. كما انه لم يبحث الامر معها. وذلك لمخاوفه الراسخة بانها ستحاول القاء جريرة فشلها عليه. وهكذا ترك الامور على حالها. وأخذ يؤجل مشاكلها دون ان يدري، على أمل ان يتكفل الموت بحلها.

لم تصب المفاجأة المرأتين اللتين كانتا تسهران على العناية به فقط، بل ان فلورينتينو اريثا نفسه فوجيء بالتبدل الذي طرأ عليه. فمنذ أقل من عشر سنوات، كان قد هاجم احدى خادماته وراء السلم الرئيسي في بيته، وهي بملابسها وواقفة على قدميها، وتركها حبلى في وقت أقصر مما يحتاجه ديك فيلبيني، وكان عليه ان يهديها بيتا مفروشا لتقسم ان الفاعل الذي لطخ شرفها هو صديق لها تخرج معه أيام الاحاد، لم يكن في الواقع قد قبلها مجرد قبلة، فقام أبوها وأعمامها، وهم من أمهر قاطعي القصب بالسيوف في موسم الحصاد، باجباره على الزواج منها. ولم يكن يبدو على فلورينتينو اريثا انه الرجل نفسه الذي تقلبه ظهراً وبطناً امرأتان كانتا حتى زمن لايتجاوز بضعة شهور تجعلانه يرتعش حبا، فتدعكانه بالصابون من فوق ومن تحت، وتنشفانه بمناشف من قطن مصري وتدلكانه في كل اجزاء جسده، دون ان تفلت منه تنهدة نشوة. وكان لكل منهما تفسيرها لفقدانه الرغبة. فليونا كاسياني تظن بانها مقدمات الموت، بينما تعزوه اميركا فيكونيا الى منشأ خفي لاتستطيع إدراك كنهه. وكان هو وحده يعرف الحقيقة، ويعرف ان لها اسماً محدداً. لكن ذلك كان ظلماً على أي حال: فقد كانتا تعانيان وهما تخدمانه اكثر من معاناته هو الذي يتلقى أحسن الخدمات.

ان ثلاثة أيام ثلاثاء فقط كانت كافية لتدرك فيرمينا داثا مدى الفراغ الذي تركته زيارات فلورينتينو اريثا. كانت تقضي تلك الايام مع صديقاتها المواظبات على زياراتها. وكانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو قد ذهبت الى بناما لتنظر في أمر ألم أصاب سمعها ولم يعد يتوقف باي ثمن، وعادت وهي مطمئنة جداً بعد شهر، لكن سمعها كان أخف مما كان عليه قبلا ببوق تضعه في اذنها. وكانت فيرمينا داثا هي الصديقة الاكثر احتمالا لاختلاط اسئلتها واجاباتها، مما شجع لوكريثيا على زيارتها يومياً، وفي أي وقت يخطر لها. لكن فيرمينا داثا لم تجد في أحد تعويضاً عن امسيات فلورينتينو اريثا المُسكِنة.

المناسب لذلك من وجهة نظره يمكن ان يكون ستين عاماً. ولكن ريثما يتم الوصول الى هذا المستوى من الاحسان، فان الحل الوحيد هو الملاجىء، حيث يتسنى للشيوخ ان يتسلوا مع بعضهم البعض، وان يتفقوا فيما يحبون ويمقتون، وفي عاداتهم واحزانهم، بعيداً عن الخلافات الطبيعية مع الاجيال التالية. وقال: ان اجتماع الشيوخ مع الشيوخ يجعلهم أقل شيخوخة». حسناً اذن: كان الدكتور اوربينو داثا يود شكر فلورينتينو اريثا على مرافقته الطيبة لامه في وحدة الترمل، ورجاه الاستمرار في ذلك لمصلحتهم معاً ولراحة الجميع، وطلب منه الصبر على مزاجها الشيخوخي. أحس فلورينتينو اريثا بالراحة لنتائج اللقاء، وقال له: «كن مطمئناً. فأنا اكبر منها بأربع سنوات، وهذا ليس الآن فقط، وانما من قبل.. قبل مولدك بكثير». ثم استسلم لاغراء التخفيف عن نفسه بضربة تهكم، فاختتم قائلاً:

- في مجتمع المستقبل، عليك ان تذهب إلى المقبرة، لتحمل اليها وإليّ باقة من الانتوريو من اجل الغداء.

لم يكن الدكتور اوربينو داثا قد لاحظ حتى ذلك الحين عدم لياقة نبوءته عن المستقبل، فدخل في متاهة من الشروحات لم تزده إلا تخبطاً. لكن فلورينتينو اريثا ساعده للخروج من ورطته. كان مشعاً، لأنه كان يعلم بأن عليه أن يلتقي عاجلاً أو آجلاً مع الدكتور اوربينو داثا في لقاء كهذا، لاستكمال شرط اجتماعي لا يمكن تجاوزه: طلب يد أمه رسمياً وقد كان جو الغداء مشجعاً، اذ بين له سهولة ذلك الطلب وحتمية الترحيب به. ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، لو انه كان حاصلاً على موافقة فيرمينا داثا. بل ان رسميات الطلب، بعد حديثهما خلال ذلك الغداء التاريخي، كانت تبدو فائضة عن الحاجة.

لقد اعتاد فلورينتينو اريثا صعود الادراج ونزولها بحذر خاص، حتى حين كان شاباً، فقد كان يفكر دوماً بان الشيخوخة انما تبدأ بزلة قدم أولى لا أهمية لها، ثم يتلوها الموت في الزلة الثانية. وكان يرى ان أخطر الادراج هو درج مكتبه، لانه ضيق وشبه منتصب. وقد اعتاد منذ زمن طويل، قبل ان يبدأ بجر قدميه بصعوبة على صعوده متفحصاً كل درجة من درجاته جيداً وممسكاً الدرابزين بكلتا يديه. ورغم انهم كثيراً ما اقترحوا عليه استبداله بدرج اقل خطورة، الا ان قراره كان يتأجل إلى الشهر التالي دائماً، لان استبداله كان يبدو له كاقرار بشيخوخته. وكان يحتاج لوقت أطول في الصعود كلما تقدمت به السن، ليس لانه كان يتكلف مشقة اكبر، كما يدعي هو باصرار، بل لانه كان يضاعف من حذره في كل مرة. ومع ذلك، فانه بعد عودته من الغداء مع الدكتور اوربينو داثا، وبعد كأس الاوبورتو الذي تناوله قبل الطعام ونصف كأس النبيذ الاحمر مع الطعام، وبعد تلك المحادثة الظافرة خصوصاً، حاول الوصول إلى الدرجة الثالثة بخطوة كخطوات راقص شاب مما لوى كاحله الايسر وجعله

يهوي على ظهره، وينجو من الموت باعجوبة. لقد كان يتمتع في لحظة وقوعه بوعي كافٍ ليفكر بانه لن يموت في تلك العثرة، لان منطق الحياة لا يسمح لرجلين تدلها لسنوات طويلة في حب المرأة ذاتها، بان يموتا بالطريقة نفسها وبفارق سنة واحدة بينهما. وكان محقاً. لفوا ساقه من القدم وحتى ربلة الساق واجبروه على البقاء في السرير دون حراك، لكنه كان حياً اكثر مما كان عليه قبل الوقوع. وعندما أمره الطبيب بالبقاء ثابتاً لمدة ستين يوماً، لم يستطع ان يصدق كل هذه التعاسة، فقال له متوسلاً:

- لا تفعل بي هذا يا دكتور. ان شهرين من حياتي هما كعشر سنوات من حياتك أنت.

وحاول ان ينهض غدة مرات، حاملاً ساقه التي كالتمثال بكلتا يديه، فكان الواقع يهزمه دوماً. لكنه حين عاد للمشي اخيراً وكاحله ما يزال يؤلمه، وظهره مسلوخ من النوم الطويل في الفراش، كانت لديه اسباب كافية للاعتقاد بان القدر قد كافأ اصراره بزلة من العناية الالهية.

أسوأ أيام مرضه كان يوم الاثنين الأول. كان الألم قد تراجع، وكان التشخيص الطبي مشجعاً، إلا انه كان يرفض الرضوخ لنكبة عدم رؤية فيرمينا داثا مساء اليوم التالي، لأول مرة منذ اربعة أشهر. ولكنه بعد قيلولة اذعان، أخضع نفسه للواقع وكتب لها بطاقة اعتذار. كتبها بخط يده على ورق معطر وبحبر فوسفوري لتقرأها في الظلام، وبالغ في مأساويته حيال خطورة الحادث دون خجل، محاولاً استنهاض عطفها. وردت عليه بعد يومين، متأثرة جداً، ولطيفة جداً ولكن دون كلمة واحدة خارج الحدود، مثلما كانت في أيام الحب العظيمة. وتشبث بالفرصة فوراً ليكتب اليها ثانية. وحين ردت عليه للمرة الثانية، قرر المضي أبعد مما كانت عليه احاديثهما الملغزة أيام الثلاثاء، فأمر بوضع هاتف إلى جوار السرير بحجة أنه يريد متابعة سير العمل اليومي في الشركة. وطلب من مقسم الهاتف المركزي ان يصلوه بالرقم الثلاثي الذي حفظه في ذاكرته منذ اتصل بها لأول مرة. سمع صوت الجرس الخافت، المتوتر بغموض البعد، ثم الصوت المحبوب يرد، وتعرفت هي على الصوت الآخر فودعته بعد ثلاث عبارات عادية حول الصحة. أحس فلورينتينو اريثا بالغم لهذه اللامبالاة، ورأى انه يعود إلى نقطة البداية من جديد.

لكنه تلقى بعد يومين رسالة من فيرمينا ترجوه فيها الا يتصل بالهاتف ثانية. وكانت اسبابها وجيهة. فقد كان عدد الهواتف في المدينة محدوداً جداً، وكانت المكالمات تتم عبر عاملة مقسم تعرف جميع المشتركين، وحياتهم ومعجزاتهم، وليس مهما اذا هم كانوا خارج البيت: فهي تجدهم حيث يكونون. ومقابل هذه الفعالية، كانت تتنصت الى المحادثات، وتكتشف اسرار الحياة الخاصة، والمآسي المحفوظة بتكتم، ولم يكن غريبا عليها ان تتدخل في حوار دائر لتدلي

- لم يكن أحد يهدي وروداً في زماننا، بل كانوا يتبادلون ازهار الياسمين.

فقالت :

- هذا صحيح، ولكن الغرض منها كان مختلفاً كما تعلم حضرتك.

هذا ما كان يحدث دوماً: فكلما حاول التقدم خطوة قطعت عليه الطريق. لكنه في هذه المناسبة، ورغم الجواب الدقيق، أدرك انه قد أصاب الهدف، لانها اضطرت للالتفات جانباً كي تخفي تورد خديها. كان توردا متقداً، فتياً، له حياته الخاصة، مما اثار سخطها ضد نفسها. وقد احسن فلورينتينو اريثا صنعاً بالانصراف إلى موضوعات أقل فظاظة، لكن شهامته كانت بيّنة بحيث انها انتبهت اليها، وضاعف هذا من سخطها. كان يوم ثلاثاء منحوساً. فقد كادت ان تطلب منه عدم الرجوع لزيارتها، ولكن فكرة الخوض في خصام كخصومات فترة الخطوبة بدت لها مضحكة وهما في هذه السن وهذا الوضع، مما سبب لها نوبة ضحك. وبينما كان فلورينتينو اريثا يضع الوردة في المزهرية يوم الثلاثاء التالي، أمعنت التأمل في وعيها وتأكدت وهي سعيدة بانه لم يبق لديها ادنى اثر للغضب الذي اعتراها في الاسبوع السابق.

وسرعان ما بدأت الزيارات تتخذ بعداً عائلياً غير مريح، اذ كان الدكتور اوربينو داثا وزوجته يحضران أحياناً بشكل يبدو كأنه مصادفة، ويبقيان هناك للعب الورق، لكن فيرمينا داثا علمته ذلك خلال زيارة واحدة؛ وبعثا كلاهما إلى الزوجين اوربينو داثا بتحدٍ مكتوب للقاء في لعبة ورق يوم الثلاثاء التالي. كانت لقاءات مفرحة للجميع، سرعان ما اتخذت طابعاً منتظماً كالزيارات، وأقرت لها أعراف بان يأتي كل منهم بشيء معه في كل لقاء. فالدكتور اوربينو داثا وزوجته التي كانت حلوانية بارعة، يساهمان باحضاء قوالب حلوى متقنة، وذات طعم تختلف في كل مرة، أما فلورينتينو اريثا فتابع احضار طرائف مثيرة للفضول كان يجدها في السفن الاوروبية، بينما كانت فيرمينا داثا تبتدع لهم كل اسبوع مفاجئة جديدة. وكانت مباريات لعب الورق هذه تجري في الثلاثاء الثالث من كل شهر، ورغم انهم ما كانوا يتراهنون على نقود، إلا انه كان يُفرض على الخاسر المساهمة باحضار شيء خاص للمباراة التالية.

كانت طبيعة الدكتور اوربينو داثا منسجمة مع صورته الاجتماعية: فهو رجل ذو امكانيات ضئيلة، واساليب مضطربة يعاني من نوبات قلق مفاجئة، مبعثها السعادة أو السخط على حد سواء، كما كان وجهه يتورد بلا مناسبة مما يثير المخاوف حول متانته الذهنية. لكنه كان بلا شك، وكما يبدو عليه من النظرة الأولى، رجلاً طيباً. وقد كان فلورينتينو اريثا يخشى ان يعتبره الدكتور كذلك أيضاً. أما زوجته فكانت ذكية وفيها شرارة امرأة لعوب، كما كانت تقدم

بانسجامها وتوافقها لمسة اكثر انسانية إلى سعادتها. ولم يكن لفلورينتينو اريثا ان يتمنى زوجين أفضل منهما للعب الورق، ثم ان حاجته للحب التي لا ترتوي، تُوجت اخيراً باحساس انه في وسط عائلي.

في احدى الليالي، وعند خروجهما معاً من البيت، دعاه الدكتور اوربينو داثا لتناول الغداء معه: «غداً، الساعة الثانية عشرة والنصف، في النادي الاجتماعي». وكانت وليمة لذيذة مع نبيذ فاخر. كان النادي الاجتماعي يحتفظ لنفسه بحق عدم السماح بالدخول لاسباب متنوعة، وأحد أهم هذه الاسباب هو حالة الابن الطبيعي الذي لا أب له. ولقد كانت للعم ليون الثاني عشر تجربة مثيرة في هذا المجال، كما عانى فلورينتينو اريثا نفسه عار اخراجه من النادي يوماً بعد جلوسه إلى الطاولة بدعوة من أحد الاعضاء المؤسسين، كان فلورينتينو اريثا قد قدم له خدمات كبيرة في مجال التجارة النهرية، وما كان من الداعي إلا ان اصطحبه لتناول الطعام في مكان آخر، قائلاً له:

- علينا نحن الذين نضع الانظمة، ان نكون أول من يطبقها.

لكن فلورينتينو اريثا غامر رغم ذلك بالذهاب مع الدكتور اوربينو داثا، وقد استقبل هناك استقبالاً خاصاً، رغم انهم لم يطلبوا منه التوقيع في السجل الذهبي المخصص للمدعوين البارزين. كانت دعوة محدودة، اقتصرت عليهما فقط، ودار الحديث بينهما بصوت منخفض. والمخاوف التي ساورت فلورينتينو اريثا منذ مساء اليوم السابق بشأن ذلك اللقاء، تلاشت مع تناولهما كأس الأوبورتو الفاتح للشهية. كان الدكتور اوربينو داثا يود الحديث عن امه. ولكثرة ما تحدث، انتبه فلورينتينو اريثا إلى انها قد حدثته عنه. كما انتبه إلى شيء اكثر اثارة: لقد كذبت على ابنها لصالحه، اذ اخبرته بانهما كانا صديقين منذ الطفولة، وكانا يلعبان معاً منذ قدومها من سان خوان دي لاثيناغا، وانه هو الذي شجعها على قراءاتها الأولى، ولذا فهي مدينة له بجميل قديم. وقالت له كذلك انها كثيراً ما كانت تذهب بعد خروجها من المدرسة لقضاء ساعات طويلة مع ترانسيتو اريثا البارعة، التي كانت تطرز أعمالاً رائعة في دكان الخردوات. واذا كانت لم تعد تلتقي بفلورينتينو اريثا كما كانت تلتقيه في السابق، فليس لانها غير راغبة في ذلك، وانما لافتراق حياتيهما.

وقبل ان يصل إلى عمق اغراضه، جال الدكتور اوربينو داثا حول موضوع الشيخوخة. كان يرى ان العالم سيتقدم بسرعة اكبر لو انه تخلص من عرقلة الشيوخ. قال: «ان الانسانية كالجيوش في المعركة، تقدمها مرتبط بسرعة أبطأ افرادها». وكان يأمل بمستقبل اكثر انسانية، وبالتالي اكثر تحضراً، تعزل فيه الكائنات البشرية التي لم تعد قادرة على الاعتماد على نفسها في مدن هامشية، كي تتجنب عار وآلام وعزلة الشيخوخة المخيفة. وقال ان حد السن

لم تكن ذكرى الماضي لتعوض عن المستقبل، كما كان يظن. بل انها على العكس من ذلك، كانت ترسخ قناعة فيرمينا داثا الدائمة في ان ذلك الهياج المحموم في العشرين من العمر انما كان شيئا نبيلا وجميلا جدا، لكنه ليس بالحب. ورغم صراحتها الفجة، فانها لم تشأ ان تكشف له ذلك سواء بالبريد اوشخصيا، كما لم تجد في قلبها متسعا لتقول له كم هوزائف رنين العواطف في رسائله بعد ان عرفت آية تأملاته المكتوبة، وكيف تخفض اكاذيبه الغنائية من قيمته، وكم يضر به إصراره المجنون على استعادة الماضي. لا . . . لم يكن بامكان اي سطر من سطور رسائله القديمة ولا أية لحظة من لحظات شبابها المضجر اشعارها بان امسيات الثلاثاء ستكون بهذه الرحابة، كما هي في الواقع، من دونه، وبهذا التوحد والخواء.

كانت قد بعثت الى مستودع المهملات في الاصطبل خلال احدى نوباتها المفاجئة بمذياع اهداها اياه زوجها في ذكرى زواجهما لأحد الاعوام، وقد فكرا كلاهما بتقديمه الى المتحف باعتباره اول مذياع وصل الى المدينة. وكانت قد قررت وهي في عتمة حدادها عدم استخدامه، لأن أرملة لها ألقابها لايمكن لها الاستماع الى أية موسيقى دون ان تسيء الى ذكرى زوجها الميت، حتى ولو فعلت ذلك في مخدعها. ولكنها بعد يوم الثلاثاء الثالث للوحدة أمرت باعادته ثانية الى الصالة، لالتستمتع باغنيات اذاعة ريوبامبا العاطفية، كما كانت من قبل، وانما لتشغل ساعات فراغها بالاستماع الى روايات الدموع التي تبثها اذاعة سنتياغودي كوبا. وكان ذلك قرارا صائبا، لانها بدأت تفقد منذ ميلاد ابنتها عادة المطالعة التي اكسبها اياها زوجها باجتهاد منذ رحلة الزفاف، وفقدت تلك العادة تماما مع ما اصاب بصرها من ضعف متزايد، الى ان أصبحت تمضي بضعة شهور أحيانا دون ان تعرف أين هي نظارتها.

لقد استهوتها الروايات الاذاعية من اذاعة سنتياغودي كوبا، حتى صارت تنتظر بجزع الحلقات اليومية المتسلسلة. وكانت تستمع بين الحين والاخر الى الاخبار لتعرف ما الذي يحدث في الدنيا، وفي بعض المناسبات النادرة، حين تبقى وحدها في البيت، كانت تستمع بصوت منخفض جداً، الى موسيقى الميرينغي من اذاعة سانتودومينغو وموسيقى بلينا من اذاعة بورتوريكو النائيتين والواضحتين. وفي احدى الليالي، سمعت خبرا مؤثرا من محطة اذاعة مجهولة انطلقت فجأة بقوة ووضوح كما لوكانت تبث من البيت المجاور، وجاء في الخبر ان عجوزين اعتادا ان يكررا شهر عسلهما في نفس المكان منذ اربعين سنة، قد قُتلا بضربات مجداف على يد صاحب الزورق الذي كان يحملهما في نزهة، وذلك ليسرق ما معهما من مال: أربعة عشر دولاراً. وكان تأثرها أشد حين روت لها لوكريثيادل ريال القصة الكاملة كما نشرتها احدى الصحف المحلية. فقد اكتشفت الشرطة ان العجوزين المقتولين - المرأة في الثامنة والسبعين والرجل في الرابعة والثمانين - هما عاشقان سريان، يقضيان اجازتهما معاً منذ اربعين

سنة، لكن كل منهما متزوج زواجاً محترماً ومستقراً وسعيداً، ولكل منهما عائلة كبيرة. وفيرمينا داثا التى لم تبك يوماً بسبب المسلسلات الاذاعية، جاهدت بصعوبة لقهر عقدة الدموع التي علقت في حلقها، حين بعث اليها فلورينتينو اريثا في رسالته التاليةَ قصاصة الجريدة التي تحمل الخبر بلا أي تعليق منه.

لم تكن تلك الدموع هي آخر دموع تضطر فيرمينا داثا لقهرها. فقبل ان يكمل فلورينتينو اريثا ايام اعتكافه الستين، كشفت صحيفة **العدالة** على صدر صفحتها الاولى مع صور المعنيين، عن غراميات سرية مزعومة للدكتور خوفينال اوربينو ولوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو. واسهبت الجريدة في تفاصيل العلاقة، ومداها واسلوبها، وكذلك حول تواطؤ الزوج، المستسلم لانحرافاته السدومية مع الزنوج العاملين في مصنعه لتكرير السكر. وكان للقصة المنشورة بحروف بارزة وبحبر له لون الدم دوياً كدوي رعد الكارثة في اوساط الطبقة الارستقراطية الاخذة بالتفسخ. ومع ذلك لم يكن فيها سطر واحد يحمل الحقيقة: صحيح ان خوفينال اوربينو ولوكريثيا دل ريال كانا صديقين حميمين مذ كانا عازبين وبقيا صديقين بعد زواجهما، لكنهما لم يكونا عاشقين في يوم من الايام. ولم يكن هنالك ما يشير على كل حال الى ان المقال المنشور كان يريد التشهير باسم الدكتور خوفينال اوربينو، الذي تتمتع ذكراه باحترام مجمع عليه، وانما كان المقصود هو زوج لوكريثيا دل ريال، الذي اختير رئيساً للنادي الاجتماعي في الاسبوع السابق. وقد تم اخماد الفضيحة خلال ساعات قليلة. لكن لوكريثيا دل ريال لم تعد لزيارة فيرمينا داثا، واعتبرت هذه الامر على انه اعتراف بالذنب.

وقد اتضح بعد وقت قصير جداً ان فيرمينا داثا نفسها لم تكن كذلك بمنجى من مخاطر طبقتها. فقد حملت عليها جريدة **العدالة** مستغلة نقطة ضعفها الوحيدة: أعمال أبيها التجارية. فعندما اذعن هذا للنفي الاجباري، كانت تعرف حادثة واحدة من اعماله الغامضة، كما روتها لها غالا بلاثيديا. وفيما بعد، حين أكد لها الدكتور اوربينو الأمر بعد مقابلته للحاكم، أيقنت ان أباها كان ضحية مكيدة مدبرة. والمسألة هي ان اثنين من رجال الشرطة الحكوميين حضرا ومعهما أمر بتفتيش بيت حديقة البشارة، وقد فتشا البيت كله دون أن يجدا ما يبحثان عنه، ثم أمرا اخيراً بفتح خزانة الملابس ذات الابواب المغطاة بمرايا والموجودة في حجرة نوم فيرمينا داثا سابقاً. كانت غالا بلاثيديا وحدها في المنزل حينئذ، ولم يكن لديها من وسيلة لانذار أحد، فرفضت فتح الخزانة متذرعة بانها لا تملك المفتاح. عندئذ حطم أحد الشرطيين مرايا الابواب بعقب مسدسه، واكتشف وجود فراغ ما بين الزجاج والخشب مملؤ بأوراق نقدية مزيفة من فئة المئة دولار. كانت هذه هي ذروة سلسلة من الابحاث التي قادت الى لورينثو داثا على انه الحلقة الاخيرة من عملية دولية واسعة. وكان

التزوير متقنا جداً، فالأوراق النقدية المزيفة تتمتع بجميع مواصفات ورق النقود الاصلي : اذ انهم محوا الكتابة والرسوم عن أوراق من فئة دولار واحد باستخدام مادة كيماوية تشبه السحر، ثم طبعوا على الورق ذاته نقوداً من فئة المئة دولار. وادعى لورينثو داثا انه اشترى الخزانة بعد زمن طويل من زواج ابنته، وان الخزانة وصلت الى البيت دون شك والاوراق النقدية مخبأة فيها، لكن الشرطة اثبتت ان الخزانة موجودة في البيت مذ كانت فيرمينا داثا تذهب الى المدرسة. وانه لايمكن لأحد سواه اخفاء الثروة الزائفة وراء المرايا. هذا هو الشيء الوحيد الذي رواه الدكتور اوربينو لزوجته يوم تعهد أمام الحاكم باعادة حماه الى موطنه للتغطية على الفضيحة. أما الجريدة فروت أموراً كثيرة اخرى.

روت ان لورينثو داثا توسط خلال احدى الحروب الاهلية الكثيرة في القرن الماضي، بين حكومة الرئيس الليير الى اكيلو بارا وشخص بولوني الاصل، يدعى جوزيف ك. كورزينوفسكي، أقام هنا عدة شهور مع طاقم السفينة التجارية سانت انطون، التي ترفع العلم الفرنسي، في محاولة لتصريف صفقة سلاح معقدة، ولم يعرف احد كيف اتصل كورزينوفسكي، الذي ذاع صيته للعالم فيما بعد باسم جوزيف كونراد، مع لورينثو داثا، الذي اشترى منه شحنة الاسلحة لحساب الحكومة، بوثائق وايصالات نظامية، ودفع الثمن ذهباً حقيقياً. وحسب رواية الجريدة، فقد ادعى لورينثو داثا ضياع الاسلحة في هجوم مباغت، ثم انه أعاد بيعها بضعف الثمن الحقيقي الى المحافظين الذين يخوضون حرباً ضد الحكومة.

وروت العدالة أيضا ان لورينثو داثا اشترى بثمن زهيد جداً شحنة احذية عسكرية فائضة لدى الجيش الانكليزي، في الزمن الذي أسس فيه الجنرال رافائيل رييس البحرية الحربية، وانه ضاعف في هذه العملية وحدها ثروته خلال ستة شهور. وحسبما جاء في الصحيفة، فانه لدى وصول الشحنة الى هذا الميناء، رفض لورينثو داثا استلامها لان الاحذية التي وصلت كانت جميعها للقدم اليمنى فقط، ولكنه كان المشارك الوحيد في المزايدة التي اعلنتها الجمارك حسب القوانين النافذة، واشترى الشحنة بمبلغ رمزي هو مئة بيزو. وفي اثناء ذلك، اشترى شريك له في ظروف مشابهة شحنة احذية للقدم اليسرى، كانت قد وصلت الى جمارك ريوهاتشا. وما ان انتظمت الاحذية مع بعضها حتى باعها لورينثو داثا، مستفيدا من نسبه مع ال اوربينو دي لا كايي، للبحرية الحربية الناشئة بأرباح بلغت الفين بالمئة.

وانتهت رواية العدالة الى القول ان لورينثو داثا لم يغادر سان خوان دي لاثيناغا في اواخر القرن الماضي بحثاً عن مكان أفضل لمستقبل ابنته، كما كان يدعي، وانما لانكشاف أمره في مزج التبغ المستورد مع ورق مفروم، وهي الصناعة المزدهرة التي مارسها بمهارة فائقة، حتى

انها كانت تنطلي على المدخنين المحترفين. كما كشفت علاقاته بشركة سرية دولية، كان نشاطها الرائج في اواخر القرن الماضي يتمثل في تهريب الصينيين من بناما الى البلاد بأساليب غير مشروعة. أما تجارة البغال المشبوهة، والتي أساءت كثيرا الى سمعته، فيبدو انها التجارة الشريفة الوحيدة التي مارسها في حياته.

عندما غادر فلورينتينو اريثا الفراش، وظهره ملتهب بالقروح، مستخدما لأول مرة في حياته عكازا بدلا من المظلة، كان خروجه الاول الى بيت فيرمينا داثا. وجدها وقد تبدلت تماما، بفعل آثار السنين على بشرتها، وبحقد أفقدها الرغبة في الحياة. وفي الزيارتين اللتين قام بهما الدكتور اوربينو داثا لفلورينتينو اريثا اثناء مرضه، حدثه عن الاسى الذي سببته لأمه مقالتا العدالة. فالمقالة الاولى اثارت فيها غضبا مجنونا لخيانة زوجها وغدر صديقتها، مما جعلها تتوقف عن زيارتها لضريح زوجها التي كانت تقوم بها في يوم من أيام الاحد كل شهر، وذلك لسخطها من انه لن يستطيع وهو في تابوته سماع اللعنات التي تريد ان تكيلها له : لقد اختلفت مع الميت. وبعثت الى لوكريثيا دل ريال، مع كل من يريد ان يوصل الكلام اليها، تقول لها بان تقنع بالعزاء لانها وجدت على الاقل رجلا بين جميع من مروا في فراشها. أما في المقالة عن لورينثو داثا لم يكن معروفاً ماهو الذي يؤلمها اكثر : أهي المقالة، ام اكتشافها المتأخر لهوية ابيها الحقيقية. لكن أحد الاحتمالين، أوكلاهما معا، قصم ظهرها. فالشعر ذو اللون الفولاذي الذي كان يزيد من نبل وجهها، صار يبدو وكأنه نسالات الذرة الصفراء، وعينا الفهدة الجميلتان ماعادتا تلمعان ببريقهما القديم رغم روعة الغضب فيهما. وكان قرارها برفض الاستمرار في الحياة يظهر في كل حركة من حركاتها. ورغم اقلاعها منذ سنوات طويلة عن عادة التدخين، سواء وهي محبوسة في الحمام اوفي أي مكان آخر، فقد عادت اليه مجددا بشكل علني وبشراهة لا كابح لها. وبدأت أول الامر بتدخين سجائر تلفها بنفسها، كما كانت تحب ان تفعل من قبل، ثم أخذت تدخن الانواع العادية التي تجدها في المتجر، لانها لم تعد تجد متسعا من الوقت والصبر للف السجائر.

لو ان أي رجل آخر كان في موقع فلورينتينو اريثا لتساءل ما الذي سيقدمه المستقبل لشيخ مثله، اعرج ومكوي الظهر بقروح كقروح حمار، ولامرأة لاتتوق لسعادة اخرى سوى الموت. أما هو فلم يتساءل. بل وجد بصيصاً من الأمل مابين انقاض الكارثة، وبدا له ان نكبة فيرمينا داثا تجعلها أعظم شأناً، والغضب يجعلها أجمل، والحقد على العالم قد أعاد اليها طبعها الجموح الذي كانت عليه وهي في العشرين من العمر.

كان لديها الآن سبب آخر للاعتراف بجميل فلورينتينو اريثا. فقد بعث على أثر المقالات الشنيعة برسالة نموذجية الى العدالة حول مسؤولية الصحافة الاخلاقية ودورها في احترام

شرف الاخرين. لم تنشر الصحيفة الرسالة، لكن الكاتب بعث بنسخة منها الى دياريو دل كوميرثو، أقدم صحف ساحل الكاريبي واكثرها جدية، فأبرزتها هذه على صفحتها الاولى. كانت الرسالة تحمل توقيع جوبيتر، وكانت عقلانية ولاذعة ومتقنة، مما حمل البعض لنسبتها الى بعض ابرز كتاب المقاطعة. كانت صوتا منفردا وسط الاقيانوس، لكنه سمع بعمق ووصل بعيدا جداً. وعرفت فيرمينا داثا هوية الكاتب دون ان يخبرها أحد بذلك، لانها تعرفت على بعض الافكار، بل وعلى جملة حرفية، من تأملات فلورينتينو اريثا الاخلاقية. ولذا، فقد استقبلته بحيوية في فوضى يأسها. وفي هذه الفترة بالذات، وجدت اميركا فيكونيا نفسها وحيدة في مساء احد الايام في غرفة النوم ببيت شارع لاس فينتاناس، واكتشفت دون أي بحث، وبمحض الصدفة، في خزانة بلا مفاتيح، نسخا من تأملات فلورينتينو اريثا المطبوعة على الالة الكاتبة، ورسائل فيرمينا داثا المكتوبة بخط اليد.

ابتهج الدكتور اوربينو داثا لتجدد الزيارات التي ترفع كثيرا من معنويات امه. وكان بذلك على عكس اخته اوفيليا، التي رجعت في أول سفينة فواكه قادمة من نيو اورليانز فور سماعها باخبار الصداقة الغريبة التي تقيمها فيرمينا داثا مع رجل، سمعته الاخلاقية ليست على ما يرام. وقد تسبب هياجها بنشوب أزمة منذ الاسبوع الاول، حين لاحظت درجة الالفة والسلطة التي يدخل بها فلورينتينو اريثا الى البيت، والوشوشات والنزاعات العابرة الشبيهة بوشوشات ونزاعات خطيبين وذلك اثناء زياراته التي تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل. وما كان يراه الدكتور اوربينو داثا تآلفاً صحياً بين عجوزين متوحدين، كانت ترى فيه أسلوبا مريبا في اتخاذ خليل سري. هكذا كانت اوفيليا اوربينو دوماً، اقرب شبها بدونيا بلانكا جدتها لابيها، منها لامها. فهي مترفعة مثل جدتها، ومتعجرفة مثلها، وتعيش مثلها على الاوهام. ما كانت قادرة على تصور صداقة بريئة تجمع بين رجل وامرأة حتى ولو كانا في الخامسة من العمر، فكيف اذا كانا في الثمانين. وفي احدى نزاعاتها المعتادة مع اخيها، قالت ان الشيء الوحيد المتبقي لكي يواسي فلورينتينو اريثا به امها هو ان ينام معها في سريرها كأرملة. ولم تكن لدى الدكتور اوربينو داثا الشجاعة لمواجهتها، لانه لم يكن يمتلك الشجاعة امامها يوماً، لكن زوجته تدخلت بتبرير جدي حول الحب في أي سن كان. ففقدت اوفيليا صوابها وصرخت بها:

ـ ان الحب في سننا شيء مضحك، أما في سنها فهو قذارة خنازير.

وقررت في حدة اندفاعها ان تطرد فلورينتينو اريثا من البيت، ووصل هذا الى سمع فيرمينا داثا. فاستدعتها إلى حجرة النوم، كما تفعل كلما ارادت الحديث في أمر لا تريد ان تسمعه الخادمات، وطلبت منها ان تعيد أمامها ما قالته من شتائم. ولم تحاول اوفيليا ان تخفف

من قسوتها: كانت موقنة ان فلورينتينو اريثا، بسمعته الفاسدة التي لا تخفى على أحد، انما يريد الوصول إلى علاقة آثمة، ستشوه اسم العائلة الطيب اكثر مما شوهته اساءات لورينثو داثا ومغامرات خوفينال اوربينو الغبية. استمعت اليها فيرمينا داثا دون أن تنطق بكلمة واحدة، بل ودون ان ترمش، ولكنها حين انتهت من الاستماع كانت قد تحولت إلى امرأة اخرى. كانت قد عادت إلى الحياة، فقالت لها:

ـ الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو انني لا أملك القوى لضربك الضرب الذي تستحقين، لوقاحتك وخبث نيتك. ولكنك ستخرجين الآن من هذا البيت، وأقسم لك برفات أمي انك لن تدخليه ما دمت على قيد الحياة.

لم تكن هنالك من قوة قادرة على ثنيها عن قرارها. فذهبت اوفيليا للاقامة في بيت اخيها، وبعثت من هناك بكل انواع التوسلات عبر وسطاء من الاعيان. ولكن دون جدوى. فلا وساطة الابن ولا تدخل الصديقات استطاع ثنيها. ثم انها أطلقت اخيراً أمام كنتها التي كانت تربطها بها دائماً علاقة بعيدة عن الرسميات، سراً باحت به بطلاقة كطلاقتها في سنوات شبابها: «منذ قرن من الزمان أفسدوا حياتي مع هذا الرجل المسكين لاننا كنا ما نزال صغيرين، وها هم يريدون افسادها الآن ثانية لاننا أصبحنا عجوزين». ثم أشعلت سيجارة من عقب الآخرى، ونفثت السم الذي كان ينخر جوفها قائلة:

ـ فليذهبوا الى الخراء. ان كان لنا نحن معشر الأرامل من مكسب، انه لم يعد هناك من يأمرنا.

لم يكن للصلح من مكان. وحين اقتنعت اوفيليا اخيراً بعدم جدوى جميع المحاولات، رجعت إلى نيواورليانز. والشيء الوحيد الذي استطاعت التوصل اليه مع امها هو ان تودعها. ووافقت فيرمينا داثا على ذلك بعد توسلات كثيرة، لكنها لم تسمح لها بالدخول إلى البيت: لقد أقسمت على ذلك بعظام أمها، التي كانت بالنسبة لها، في تلك الايام الغائمة، الشيء الوحيد الذي بقي طاهراً.

في احدى زياراته الأولى، واثناء الحديث عن سفنه، وجه فلورينتينو اريثا دعوة رسمية لفيرمينا داثا لتقوم برحلة استجمام عبر النهر. حيث يمكنها من هناك الوصول، بعد يوم واحد في القطار، إلى عاصمة الجمهورية، التي ما زالا، مثلهم كمثل معظم الكاريبيين من ابناء جيلهم، يطلقون عليها الاسم الذي كانت تحمله حتى القرن الماضي: سانتافي. لكنها كانت تحفظ بوجهة نظر زوجها ولا تريد معرفة مدينة باردة وقاتمة حيث النساء لا يخرجن من بيوتهن إلا إلى صلاة الخامسة، ولا يستطعن الدخول إلى مقاهي بيع المثلجات ولا إلى الدوائر العامة، كما قيل لها، وحيث توجد في كل وقت زحمة جنازات في الشوارع ومطر خفيف متواصل

منذ سنوات البغلة ذات الحدوات . . انها أسوأ من باريس . ولكنها كانت تشعر بالمقابل بميل شديد إلى النهر، فهي تريد رؤية التماسيح تتشمس على الضفاف، وتريد الاستيقاظ في منتصف الليل على نواح الأطم الذي يشبه بكاء النساء، لكن فكرة القيام برحلة شاقة في هذه السن، اضافة إلى كونها أرملة ووحيدة، كانت تبدو لها امراً لا واقعياً.

كرر فلورينتينو اريثا الدعوة لها فيما بعد، حين كانت قد قررت الاستمرار في الحياة بدون زوجها، فبدت لها الفكرة حينئذ اكثر احتمالاً . ولكن بعد خلافها مع ابنتها، واحساسها بالمرارة للاهانات الموجهة الى ابيها، وحقدها على زوجها الميت، وغضبها من تملقات لوكريثيا دل ريال المنافقة ، والتي اعتبرتها لسنوات طويلة أفضل صديقاتها، أخذت تشعر بانها مجرد شيء زائد عن الحاجة في بيتها. وفي مساء أحد الأيام، وفيما هي تشرب شرابها الخاص المحضر من أوراق شاي كونية، نظرت إلى مستنقع الفناء، حيث لم تعد تبرعم شجرة نكبتها، وقالت:

- ما أريده هو هجر هذا البيت، والانطلاق قدماً، قدماً قدماً، وعدم العودة اليه أبداً.

فقال فلورينتينو اريثا :

- اذهبي في سفينة نهرية.

نظرت اليه فيرمينا داثا وهي ساهمة وقالت:

- يمكنك الاعتقاد بأن هذا وارد.

لم تكن قد فكرت بذلك لحظة واحدة قبل ان تنطق به، ولكن مجرد ورود الاحتمال كان كافياً لاعتبار الامر ناجزاً. وقد سر الابن والكنة حين علما بالخبر. وسارع فلورينتينو اريثا ليؤكد ان فيرمينا داثا ستكون ضيفة شرف على سفنه، وستجد تحت تصرفها قمرة مجهزة بكل شيء وكأنها في بيتها، وستكون الخدمة على اكمل وجه، وسيكلف القبطان بالذات لحمايتها والسهر على راحتها. وجاء بخرائط تبين خط سير الرحلة ليشجعها، وبطاقات بريدية لمناظر غروب هائجة، وقصائد شعرية عن جنة نهر مجدلينا البدائية كتبها رحالة مشهورون، أو انهم أصبحوا مشهورين لروعة القصيدة. فكانت تلقي عليها نظرة عابرة حين يكون مزاجها رائقاً وتقول له:

- ليس عليك ان تخدعني كما لو انني طفلة. اذا كنت أريد الذهاب فلانني قررت ذلك، وليس اهتماماً بالمناظر الطبيعية.

وحين اقترح ابنها بان تذهب زوجته معها لمرافقتها، قاطعته بلهجة مسالمة: «لقد كبرت ولم أعد بحاجة لمن يرعاني». ورتبت بنفسها تفاصيل الرحلة. وكانت تشعر براحة كبيرة لفكرة انها ستمضي ثمانية أيام في صعود النهر وخمسة أيام في نزوله دون ان تحمل معها شيئاً باستثناء

الحاجات التي لا غنى عنها: نصف دزينة من الفساتين القطنية، وادوات زينتها ونظافتها، وزوج من الاحذية للصعود به إلى السفينة وللنزول إلى البر، ونعال بيتي لاستخدامه اثناء الرحلة، ولا شيء آخر. . انه حلم حياتها.

في شهر كانون الثاني لعام ١٨٢٤، قام الربان خوان برناردو البيرس، مؤسس الملاحة النهرية، برفع راية السفينة البخارية الأولى التي مخرت مياه نهر مجدلينا، وقد كانت آلة بدائية بقوة اربعين حصاناً، تدعى وفاء. وبعد مرور اكثر من قرن، في السابع من تموز، وفي الساعة السادسة مساء، رافق الدكتور اوربينو داثا وزوجته، فيرمينا داثا لتركب السفينة التي ستحملها في رحلتها الأولى عبر النهر. وكانت تلك السفينة هي الاولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وقد عمدها فلورينتينو اريثا باسم **وفاء الجديدة** تخليداً لذكرى سلفتها المجيدة. ولم تستطع فيرمينا داثا ان تصدق ابداً بان ذلك الاسم ذا المغزى الشديد هو مجرد مصادفة تاريخية حقاً، وليس ظرافة اخرى من ظرافات فلورينتينو اريثا، الرومنسي المزمن.

وعلى خلاف جميع السفن النهرية الاخرى، القديمة منها والحديثة، كان في وفاء الجديدة، والى جانب قمرة القبطان، قمرة اضافية واسعة ومريحة، مكونة من صالة استقبال مؤثثة بمفروشات من البامبو الملون بألوان احتفالية، ومخدع زوجي مزخرف بكامله بزخارف صينية، وحمام فيه حوض بانيو ودوش، وشرفة مغلقة وفسيحة جداً، فيها نباتات زينة معلقة وتسمح بالرؤية إلى أمام السفينة وجانبيها، ومزودة بأجهزة تبريد صامتة تحافظ على الجو في ربيع دائم بعيداً عن القيظ المتقد في الخارج. كان هذا الجناح الفاخر يعرف باسم قمرة الرئاسة، لان ثلاثة من رؤساء الجمهورية سافروا فيه حتى ذلك الحين، ولم يكن لهذه القمرة اي غرض تجاري، بل كانت مخصصة للسلطات العليا والضيوف الخاصين جداً. وقد بناها فلورينتينو اريثا لهذا الغرض المعلن فور تعيينه رئيساً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، لكنه كان متأكداً في دخيلته من انها ستكون عاجلاً او آجلاً الملجأ السعيد لرحلة زفافه مع فيرمينا داثا.

وفعلاً جاء اليوم المنتظر، واتخذت موقعها في القمرة الرئاسية كربة وسيدة للمكان. وقدم القبطان فروض التشريف للدكتور اوربينو داثا وزوجته ولفلورينتينو اريثا بالشمبانيا والسلمون المدخن. كان اسمه ديغو ساماريتانو، وكان يرتدي بدلة من الكتان الابيض، محكمة على مقاسه تماماً، من الحذاء وحتى القبعة التي تحمل شعار ش. ك. م. ن مطرزاً بخيوط ذهبية، وكان يشبه غيره من قباطنة السفن النهرية بضخامته التي كضخامة اشجار الثيبا، وبصوته الحازم وحركاته التي كحركات كردينال فلورنسي.

في الساعة السابعة ليلاً أطلقت أولى اشارات الابحار، واحست بها فيرمينا داثا تدوي بألم حاد في اذنها اليسرى. لقد حلمت في الليلة السابقة أحلاماً مثلمة ذات نذر مشؤومة لم تتجرأ على تفسيرها. ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى مدفن المجمع الاكليريكي الذي صار يعرف باسم مقبرة لامانغا، وصالحت زوجها الميت، وهي واقفة أمام قبره، وذلك بمنولوج أطلقت فيه العنان للومها العادل الذي كانت تغص به. ثم روت له تفاصيل الرحلة، وودعته متمنية اللقاء به قريباً. لم تشأ ان تخبر أحداً آخر بانها ذاهبة، وذلك ما كانت تفعله كلما سافرت إلى اوروبا، لتجول دون الوداعات المنهكة. ورغم رحلاتها الكثيرة، فقد أحست وكأن هذه هي رحلتها الاولى، وكان قلقها يتزايد كلما تقدم النهار واقترب الموعد. وحين أصبحت على متن السفينة، أحست بالهجران والكآبة، ورغبت بالبقاء وحيدة لتبكي.

عند انطلاق اشارة الابحار الاخيرة، ودعها الدكتور اوربينو داثا وزوجته دون دراماتيكية، ورافقهما فلورينتينو اريثا إلى جسر النزول إلى البر. حاول الدكتور اوربينو داثا ان يفسح له الطريق ليمشي وراء زوجته، ولكنه انتبه حينئذ فقط إلى ان فلورينتينو اريثا ذاهب في الرحلة أيضاً. ولم يستطع الدكتور اوربينو داثا السيطرة على حيرته، فقال:

ـ ولكننا لم نتحدث في هذا من قبل.

اراه فلورينتينو اريثا، مفتاح قمرته كدليل كاف على حسن نواياه: قمرة عادية في جناح المسافرين العاديين. ولكن الدكتور اوربينو داثا لم ير في ذلك دليلاً كافياً على البراءة. فاتجه الى زوجته بنظرة غريق، باحثاً عن نقطة استناد لحيرته، ولكنه التقى بعينين ثلجيتين. وقالت له بصوت خافت جداً، وحازم في الوقت ذاته: «وأنت أيضاً؟» أجل. هو أيضاً، مثل اخته اوفيليا، يفكر ان للحب سناً معيناً يصبح بعده امراً غير لائق. لكنه استطاع السيطرة على نفسه في الوقت المناسب، وودع فلورينتينو اريثا شاداً على يده بحركة فيها من الاذعان اكثر مما فيها من الشكر.

رآهما فلورينتينو اريثا ينزلان من السفينة وهو واقف عند درابزين الصالة. تماماً كما كان ينتظر ويأمل، والتفت الدكتور اوربينو داثا وزوجته بنظرهما اليه قبل ان يدخلا السيارة، فودعهما ملوحاً بيده. وردا عليه بتحية مماثلة. وبقي عند الدرابزين إلى ان اختفت السيارة وسط غبار باحة الشحن، ثم مضى إلى قمرته ليرتدي ملابس اكثر ملائمة للعشاء الأول على متن السفينة، في صالة الطعام الخاصة بالقبطان.

كانت ليلة رائعة، تبلها القبطان ديغو ساماريتانو بحكايات لذيذة عن سنواته الاربعين في النهر، لكن فيرمينا داثا اضطرت للقيام بمجهود كبير لتبدو سعيدة. ورغم انطلاق صفارة التنبيه الاخيرة في الساعة الثامنة، ورغم انزال الزائرين ورفع جسر النزول في هذه الساعة

أيضاً، فان السفينة لم تنطلق إلى ان انتهى القبطان من تناول طعامه وصعد إلى مركز القيادة ليشرف على مناورة الخروج من الميناء. بقيت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا يتطلعان من فوق درابزين الصالة العامة، مختلطين مع المسافرين الصاخبين الذين كانوا يلعبون لعبة تمييز أضواء المدينة، إلى ان خرجت السفينة من الميناء، وولجت قنوات لامرئية ومستنقعات مبرقعة بانوار متموجة تنبعث من زوارق الصيادين، وشخرت اخيراً ملء رئتها في الهواء الطلق لنهر مجدلينا العظيم. حينئذ انطلق الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة شعبية دارجة، وهيمنت على المسافرين موجة من المرح، وبدأ الرقص الصاخب.

فضلت فيرمينا داثا اللجوء إلى القمرة. لم تكن قد نطقت بأية كلمة خلال الليل، وقد تركها فلورينتينو اريثا تتيه في تأملاتها، ولم يقاطعها إلا ليودعها أمام قمرتها. لكنها لم تكن تشعر بالنعاس، وانما بشيء من البرد فقط، واقترحت ان يجلسا قليلاً ليراقبا النهر معاً من الشرفة الخاصة. فسحب فلورينتينو اريثا كرسيين خيزرانيين إلى الشرفة، وأطفأ الانوار، ووضع لها بطانية صوفية على كتفيها، وجلس إلى جانبها. لفت سيجارة من العلبة التي أهداها اياها. لفتها بمهارة مذهلة، ودخنتها ببطء واضعة الجمرة في فمها، دون ان تتكلم، ثم لفت سيجارتين اخريين متتاليتين وخدنتهما دون توقف. وشرب فلورينتينو اريثا ترمسين من القهوة المرة رشفة بعد اخرى.

كانت أضواء المدينة قد اختفت في الافق. ومن خلال الشرفة المظلمة كان النهر المنبسط الساكن، ومرابع العشب على ضفتيه تبدو تحت ضوء القمر المكتمل بدراً وكأنها سهوب فوسفورية. وبين الحين والحين كان يظهر كوخ من القش إلى جانب محارق كبيرة يعلنون بها انهم يبيعون هناك حطباً لمراجل السفن. كان فلورينتينو اريثا يحتفظ بذكريات غائمة عن رحلته النهرية في شبابه، ولكن مرأى النهر جعله يستعيدها في دفقات مبهرة كما لو انها حدثت بالأمس. روى بعضاً من تلك الذكريات لفيرمينا داثا معتقداً ان ذلك قد يبث فيها الحماس، لكنها كانت تدخن في عالم آخر. فتخلى فلورينتينو اريثا عن ذكرياته وتركها وحيدة مع أفكارها، وكانت اثناء ذلك تلف السجائر وتشعلها إلى ان نفدت العلبة. توقفت الموسيقى بعد منتصف الليل، وتلاشى صخب المسافرين، ثم تحول إلى همسات هاجعة، وبقي القلبان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان ايقاع أنفاس السفينة.

بعد مرور بعض الوقت، نظر فلورينتينو اريثا إلى فيرمينا داثا من خلال بريق النهر، فرآها طيفية، ورأى بروفيل وجهها الذي كتمثال يصبح اكثر حلاوة تحت البريق الأزرق الخفيف، وانتبه إلى انها كانت تبكي بصمت. ولكنه بدلاً من مواساتها، أو الانتظار إلى ان تنفد دموعها، كما كانت ترغب هي، سمح للقلق بان يداهمه، فسألها:

- اتودين البقاء وحدك ؟

قالت :

- لو كنت اريد ذلك لما طلبت منك الدخول .

عندئذ مد أصابعه الباردة في الظلام ، وبحث باللمس عن اليد الاخرى ، ووجدها بانتظاره . لقد كانا يتمتعان ، في اللحظة السريعة ذاتها بما يكفي من الصحو ليدركا أن أياً من اليدين لم تكن هي اليد التي تخيلاها قبل ان يلمساها ، وانما كانتا يدين هرمتين معروقتين . ولكنهما ما لبثا ان أصبحتا كما أرادا في اللحظة التالية . بدأت تتحدث في الزمن الحاضر ، عن زوجها الميت ، وكانه ما يزال حياً ، وعرف فنورينتينو اريثا انه قد ازفت بالنسبة لها أيضاً لحظة التساؤل بوقار وعظمة ، ورغبة جامحة في الحياة ، ما الذي تفعله بالحب الذي بقي لديها دون سيد .

توقفت فيرمينا داثا عن التدخين كي لا تفلت يدها التي كان يمسكها بيده . كانت تائهة في قلق البحث عن الوعي . ما كانت قادرة على تصور زوج أفضل من ذاك الذي كان زوجها ، ولكنها كانت تجد العراقيل بدلاً من السهولة في استحضار حياته ، كانت تجد كثيراً من سوء الفهم المتبادل والنزاعات الجوفاء ، والاحقاد التي فضت على غير ما يرام . وتنهدت فجأة : « لا أستطيع ان أصدق كيف يمكن للانسان ان يكون سعيداً خلال سنوات طويلة ، وسط كل هذه الخلافات ، وكل هذه المشاكل ، اللعنه ، وكل ذلك دون ان نعرف ان كان هذا حباً أم لا » . وعندما انتهت من التفريج عن قلبها ، أطفأ أحد القمر . كانت السفينة تتقدم بخطواتها المحسوبة ، واضعة قدماً قبل ان ترفع الاخرى : كحيوان ضخم يترصد . وكانت فيرمينا داثا قد افاقت من ذهولها . فقالت :

- انصرف الآن .

ضغط فلورينتينو اريثا على يدها ، ومال نحوها ، محاولاً تقبيل وجنتها . لكنها أعرضت عنه قائلة بصوت أبح ورقيق :

- لا ، ما عاد هذا ممكناً . . ان لي رائحة عجوز .

أحست به يخرج في الظلام ، وأحست بوقع خطواته على الادراج ، وأحست باختفائه عن الوجود حتى اليوم التالي . أشعلت فيرمينا داثا سيجارة اخرى ، وفيما هي تدخنها رأت الدكتور خوفينال اوربينو بملابسه الكتانية الناصعة ، وصرامته المهنية ، ولطفه المبهر ، وحبه الرسمي ، وأشار لها مودعاً بقبعته البيضاء من سفينة اخرى من الماضي . «لسنا نحن معشر الرجال سوى عبيد مساكين للوهم . أما حين تقرر امرأة مضاجعة أحد الرجال ، فليس هناك من حاجز إلا وتجتازه ، لا حصن إلا وتحطمه ، ولا اعتبار أخلاقي إلا وتكون مستعدة لخرقه من اساسه :

وليس ثمة رب ينفع . » هذا ما قاله لها في احد الأيام . وبقيت فيرمينا داثا جامدة حتى الفجر ، تفكر بفلورينتينو اريثا ، ليس كحارس كئيب في حديقة البشارة لا تثير ذكراه فيها أي حنين ، وانما كما هو حينئذ ، عجوز وأعرج ، ولكنه واقعي : انه الرجل الذي كان رهن اشارتها دوماً ولم تستطع التعرف اليه . وفيما السفينة اللاهثة تسحبها نحو بريق الازهار البدائي ، كانت تدعو الله ان يلهم فلورينتينو اريثا ليعرف كيف يبدأ ثانية في اليوم التالي .

وقد عرف . كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للجرسون بان يتركها نائمة إلى ان تستيقظ من تلقاء نفسها . وحين استيقظت وجدت على الكوميدينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة ، ما تزال مضمخة بالندى ، ومعها رسالة من فلورينتينو اريثا مؤلفة من الصفحات التي استطاع كتابتها مذ ودعها . كان رسالة هادئة ، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي عاشها منذ الليلة الماضية . وكانت شديدة الغنائية كرسائله الاخرى ، وخطابية مثلها جميعها ، ولكنها مستندة الى الواقع . قرأتها فيرمينا داثا ببعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة . وكانت الرسالة تنتهي بالطلب اليها ان تخبر الجرسون حين تكون جاهزة ، لان القبطان ينتظرهما في مركز القيادة ليشرح لهم سير العمل في السفينة .

في الساعة الحادية عشر كانت جاهزة ، مستحمة ومنتعشة بالصابون الذي له رائحة ازهار ، ومرتدية فستان ارملة رمادي اللون وشديد البساطة ، موفورة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية . طلبت فطوراً بسيطاً من الجرسون الذي يرتدي ملابس بيضاء ناصعة ، ويعمل في خدمة القبطان شخصياً ، لكنها لم تبعث اليهم كي يحضروا لمرافقتها . صعدت وحدها ، مبهورة بالسماء الصافية ، ووجدت فلورينتينو اريثا يتحدث إلى القبطان في مركز القيادة . بدا لها مختلفاً ، ليس لانها رأته بعينين اخريين حينئذ ، وانما لانه كان مختلفاً بالفعل . فبدلاً من الملابس الجنائزية التي ارتداها طوال حياته ، كان ينتعل حذاء ابيض ويرتدي بنطالاً وقميصاً من الكتان مفتوحاً عند العنق واكمامه قصيرة وعلى جيبه الذي فوق الصدر نقشت الحروف الأولى من اسمه . وكان يعتمر قبعة اسكتلندية ، بيضاء اللون أيضاً ، ويضع نظارة ذات عدسات قاتمة فوق نظارة قصر النظر الازلية . ومما لا شك فيه ان كل ذلك كان يستخدم للمرة الأولى ، وانه اشتراه من اجل الرحلة ، باستثناء حزام الجلد البني العتيق ، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الأولى وكأنه ذبابة في طبق الحساء . حين رأته على هذا الحال ، مرتديا ملابس متميزة من أجلها ، لم تستطع منع تورد ناري من الصعود إلى وجنتيها . وانبهرت عند مصافحته ، وانبهر هو اكثر لانبهارها . وادراكهما بانهما يتصرفان كخطيبين زاد من انبهارهما ، ووعيهما بانهما منبهرين كليهما أبهرهما إلى الحد الذي جعل القبطان ساماريتانو يلاحظ ذلك بارتعاشة حب . وأخرجهما من الحرج بان شرح لهما مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة

خلال ساعتين. كانوا يبحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف، يتبدد بين كثبان رملية قاحلة حتى الافق. وعلى عكس مياه المصب العكرة، كانت تلك المياه بطيئة وصافية، ولها بريق معدني تحت الشمس الحارقة. وأحست فيرمينا داثا بان المكان هو دلتا تتخللها جزر رملية. فقال لها القبطان:

ـ هذا ما تبقى لنا من النهر.

لقد فوجيء فلورينتينو اريثا حقاً بالتبدل الذي أصاب النهر، وازدادت مفاجأته في اليوم التالي، حين أصبح الابحار أصعب، ورأى ان النهر الأب، نهر مجدلينا، أحد الأنهار الكبرى في العالم، ليس إلا وهماً من اوهام الذاكرة. واخبرهما القبطان ساماريتانو ان عمليات قطع الغابات اللاعقلانية قد قضت على النهر خلال خمسين سنة: فمراجل السفن التهمت غابات الاشجار الضخمة المتشابكة التي أحسها فلورينتينو اريثا تثقل على انفاسه في رحلته الاولى. وأفنى صيادو جلود الدباغة القادمين من نيو اورليانز التماسيح التي كانت تتظاهر بالموت واشداقها مفتوحة لساعات وساعات فوق رمال الضفاف لتقتنص الفراشات، بينما راحت تموت الببغاوات ذات الرطانة الغريبة والقرود ذات الصرخات المجنونة كلما تناقصت الغابات، بينما كانت الاطم التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية وتبكي بأصوات كأصوات النساء الثكالى على الضفاف هي الصنف المفضل لرصاص صيادي المتعة.

كان القبطان ساماريتانو يشعر نحو الاطم بعاطفة شبه امومية، لانه كان يرى فيها سيدات مُسخن لخطيئة حب اقترفنها، وكان يؤمن بصحة الاسطورة القائلة بانها الاناث الوحيدة التي لا ذكور لها في مملكة الحيوان. وكان يعارض دوماً اطلاق النار عليها من سفينته، كما هي العادة، رغم وجود قوانين تحظر ذلك. وقد رفض صياد من كارولينا الشمالية، يحمل وثائق نظامية، الرضوخ لتعليماته يوماً، وهشم رأس أطومة أم بطلقة صائبة من بندقيته السبرينغفيلد، وبقي الوليد الذي أطار الألم صوابه يبكي صارخاً فوق جثة امه الممددة فحمل القبطان الأطوم اليتيم ليتدبر له مخرجاً، وترك الصياد مهجوراً على الشاطىء المقفر إلى جوار جثة الأم المقتولة. وقد أمضى ستة اشهر في السجن، بفعل الاحتجاجات الدبلوماسية، وكاد يفقد تصريح عمله كبحار، لكنه خرج من السجن وهو مستعد لتكرار ما فعله كلما اقتضى الأمر منه ذلك. وقد كان ذلك الحادث حدثاً تاريخياً: فالأطوم اليتيم، الذي رُعي وعاش لسنوات طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولا دي لاس بارانكاس، كان الأطوم الاخير الذي شوهد في النهر.

قال القبطان:

ـ كلما مررت من هذا الشاطىء، أدعو الله ان يعود ذلك الامريكي للابحار في سفينتي،

كي اتركه وحيداً من جديد.

فيرمينا داثا، التي لم تكن تستلطفه أول الأمر، أحست بميل شديد نحو ذلك المارد الرقيق، وانزلته منذ ذلك الصباح في منزلة متميزة من قبلها. وقد أحسنت صنعاً بذلك: فالرحلة لم تكد تبدأ بعد، وستجد مناسبات كثيرة لتتأكد من انها لم تكن مخطئة.

بقيت فيرمينا داثا مع فلورينتينو اريثا في مركز القيادة حتى موعد الغداء، بعد قليل من مرورهما قبالة بلدة كالامار، التي كانت تعيش منذ بضع سنوات في عيد دائم، ولم تعد الآن سوى اطلال ميناء شوارعها مقفرة. الكائن الوحيد الذي رأوه من السفينة، هو امرأة متشحة بالبياض تلوح بمنديل في يدها. ولم تفهم فيرمينا داثا لماذا لم يحملوها في السفينة، مع انها كانت تبدو مغمومة جداً، ولكن القبطان أوضح لها بانها شبح امرة غارقة تلوح للمراكب باشارات مخادعة لتحرفها نحو الدوامات المائية الخطرة عند الضفة الاخرى. ولقد مروا قريباً جداً منها حتى ان فيرمينا داثا رأتها بكل تقاطيعها، واضحة تماماً تحت الشمس، ولم ترتب في انها غير موجودة حقاً، لكن وجهها بدا لها مألوفاً.

كان يوماً طويلاً وقائظاً. وقد رجعت فيرمينا داثا إلى القمرة بعد الغداء، لتنام قيلولتها المعتادة، لكنها لم تنم نوماً مريحاً بسبب ألم اذنها، الذي اشتد بعد ان تبادلت السفينة تحية قوية مع سفينة اخرى تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية التقت بها على بعد عدة فراسخ من بارانكا بييخا. قطع فلورينتينو اريثا حلماً عابراً وهو جالس في الصالون الرئيسي، حيث ينام معظم المسافرين كما لو كان الوقت منتصف الليل. حلم بروسالبا، قريباً جداً من المكان الذي رآها تنزل فيه من السفينة إلى البر. رآها في حلمه تسافر وحدها، بملابس من القرن الماضي، وكانت هي، وليس الطفل، تنام القيلولة في قفص الخيزران المعلق على حافة جانب السفينة. كان حلماً غامضاً ومبلياً في الوقت ذاته، وبقي يعيش متعته طوال ما بعد الظهر، حين كان يلعب الدومينو مع القبطان واثنين من المسافرين.

كان الحر يخمد مع غروب الشمس، فتنبعث الحياة في السفينة يخرج المسافرون كما لو كانوا يخرجون من سبات طويل، وقد استحموا وارتدوا ملابس نظيفة، ويحتلون مقاعد الخيزران في الصالة بانتظار العشاء، الذي يعلن عنه في الخامسة تماماً جرسون يذرع السفينة من طرف إلى آخر وهو يقرع وسط التصفيق الساخر جرس شماس. وفيما هم يأكلون، تبدأ الفرقة بعزف موسيقى فاندانغو الراقصة، ويستمر الرقص بعد ذلك حتى منتصف الليل.

لم تشأ فيرمينا داثا العشاء بسبب ألم اذنها، وتفرجت على تحميل شحنة الحطب الأولى للمراجل، وذلك في وهدة جرداء حيث لاشيء سوى جذوع مكومة، ورجل عجوز جداً يشرف على تلك التجارة. لم يكن يبدو ان هناك أحداً على مدى فراسخ كثيرة. ولقد كان

التوقف بالنسبة لفيرمينا داثا بطيئاً ومملاً، وغير وارد في عابرات المحيط الاوروبية، وكان الحر شديداً حتى داخل الشرفة المبردة. ولكن حين انطلقت السفينة من جديد، تحركت ريح باردة محملة بروائح بطن الغابة، وأصبحت الموسيقى اكثر مرحاً. وفي بلدة سيتيونويغو، كان ثمة ضوء وحيد ينبعث من نافذة وحيدة في بيت وحيد، ولم يعط مكتب الميناء الاشارة الاصطلاحية بوجود بضائع أو مسافرين لحملهم في السفينة، لذلك تابعت السفينة قدماً دون ان تطلق صفارة تحية.

كانت فيرمينا داثا قد أمضت طوال ما بعد الظهر متسائلة عن الذرائع التي سيلجأ اليها فلورينتينو اريثا ليراها دون أن يقرع باب القمرة، ولم تعد عند حلول الليل قادرة على احتمال شوقها للقائه. فخرجت إلى الممر على أمل اللقاء به بشكل يبدو عرضياً، ولم يكن عليها ان تمشي كثيراً: كان فلورينتينو اريثا يجلس على أحد مقاعد الممر، صامتاً وحزيناً كما كان يجلس في حديقة البشارة، وكان يسائل نفسه منذ اكثر من ساعتين ما الذي سيفعله ليراها. وابدى كلاهما سيماء الدهشة والمفاجأة التي يتقنان تصنعها على حد سواء، ومضيا معاً إلى القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى من سطح المركب، وكان يغص بمسافرين شبان معظمهم من الطلبة الصاخبين الذين ينهكون انفسهم مع بعض القلق في الحفلة الاخيرة من الاجازة. وتناول فلورينتينو اريثا وفيرمينا داثا من الكانتين زجاجتي مرطبات وهما جالسان كالطلاب مقابل البار، ورأت نفسها فجأة في موقف مخيف. وقالت: «يا للهول!». وسألها فلورينتينو اريثا ما الذي تفكر به ويسبب لها هذا الانطباع. فقالت:

- بالعجوزين المسكينين، اللذين قتلا بضربات المجداف في القارب.

ومضيا للنوم عندما توقفت الموسيقى، بعد محادثة طويلة دون عثرات في الشرفة المظلمة. لم يكن هناك قمر، وكانت السماء ملبدة، وفي الافق تلمح بروق بلا رعود فتضيئهما لهنيهة. لف فلورينتينو اريثا لها السجائر، لكنها لم تدخن منها سوى اربع، وهي تتعذب بالألم الذي كان يهدأ للحظات ثم ما يلبث ان يشتد حين تجأر السفينة لدى لقائها بسفينة اخرى، أو مرورها مقابل قرية هاجعة، أو حين تمضي ببطء لتسبر عمق النهر. روى لها كيف انه كان يراها بشوق في مهرجانات الربيع، وفي رحلة المنطاد، وعلى الدراجة الاكروباتية، وحدثها عن الشوق الذي كان ينتظر به الاحتفالات العامة طوال السنة، وذلك ليراها فقط. وكانت هي تراه أيضاً في مناسبات كثيرة، ولم تتصور يوماً بانه موجود ليراها فقط. ومع ذلك، فقد تساءلت فجأة حين قرأت رسائله قبل أقل من سنة، كيف امكن له ألا يشارك أبداً في مسابقات مهرجان الزهور، لانه كان سيفوز دون ريب. وكذب فلورينتينو اريثا عليها: لم يكن يكتب إلا لها، جميع أشعاره لها، ولم يكن يقرأها أحد سواه. حينئذ بحثت هي عن يده في

الظلام، ولم تجدها في انتظارها كما انتظرت هي يده في الليلة السابقة، وانما امسكت بها بغتة. فتجمد قلب فلورينتينو اريثا، وقال:

- يا لغرابة النساء.

أفلتت ضحكة عميقة، ضحكة يمامة فتية، وعادت تفكر بشيخي القارب. لقد كان ذلك مقدراً: وستلاحقها تلك الصورة دوماً. لكنها قادرة على احتمالها هذه الليلة، لانها تشعر بالطمأنينة والراحة، كما شعرت مرات قليلة في حياتها: احست انها مطهرة من أي خطيئة. وكانت قادرة على ابقاء هكذا حتى الفجر، صامتة، ويده تتعرق في يدها، لكنها لم تستطع احتمال ألم اذنها. فحين انطفأت الموسيقى، وتوقفت حركة مسافري الدرجة العادية الذين كانوا يعلقون اراجيح نومهم في الصالة، أدركت ان ألمها أقوى من رغبتها في البقاء معه. كانت تعلم ان مجرد اخباره بألمها سيخفف عنها لكنها لم تفعل كي لا تقلقه. اذ كانت تشعر حينئذ بانها تعرفه كما لو انها عاشت معه حياتها كلها، وكانت ترى انه لن يتورع عن اعطاء الامر بعودة السفينة إلى الميناء اذا كان هذا يخلصها من الألم.

أحس فلورينتينو اريثا ان الامور ستمضي هذه الليلة على هذا الحال، فانسحب. وفيما هو عند باب القمرة، حاول توديعها بقبلة، لكنها وضعت له خدها الايسر. فاصر، وقد تهدجت انفاسه، فقدمت له خدها الآخر بغنج لم يعرفه في تلميذة مدرسة. وعندئذ أصر للمرة الثانية، فتلقته بشفتيها، وضمته برعشة عميقة حاولت خنقها بضحكة منسية منذ ليلة زفافها وقالت:

- رباه، كم أنا مجنونة في السفن!

ارتعش فلورينتينو اريثا: فقد كانت تنبعث منها حقاً، كما قالت، رائحة الشيخوخة. ولكنه فيما كان يتقدم نحو قمرته شاقاً طريقه وسط متاهة اراجيح النائمين، عزى نفسه بان له رائحة كتلك، إلا انها اكبر بأربع سنوات، ولا بد انها قد احستها بالانفعال نفسه. انها رائحة الخمائر البشرية التي أحسها في عشيقاته القديمات وأحسسنها فيه. لقد قالت له أرملة ناثاريت، التي لا تخفي شيئاً، بطريقة فجة يوماً: «ان رائحتنا أصبحت كرائحة طيور الرخمة». وكان كلاهما يحتمل رائحة الآخر، لانهما كانا متساويين: رائحتي مقابل رائحتك. لكنه كان شديد الحذر مع اميركا فيكونيا، فرائحة الاقمطة التي تنبعث منها كانت توقظ غرائزه الامومية، لكنه كان يتعذب لفكرة انها لا تستطيع احتمال رائحته: رائحة الشيخ المتصابي. غير أن هذا كله أصبح من الماضي. والمهم الآن هو ان فلورينتينو اريثا لم يشعر بسعادة كسعادته هذه الليلة منذ ذلك المساء الذي تركت فيه العمة اسكولاستيكا كتاب الصلوات على طاولة مكتب التلغراف... انها سعادة غامرة إلى حد يبعث فيه الخوف.

كان قد بدأ يغفو، حين ايقظه مراسل السفينة في الساعة الخامسة عند ميناء ثامبرانو ليسلمه برقية مستعجلة : كانت البرقية تحمل توقيع ليونا كسياني، وتاريخ اليوم السابق، وكل رعبها ضمنته في سطر واحد : **اميركا فيكونيا ماتت أمس . الاسباب غير معروفة** . وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً عرف التفاصيل من خلال اتصال تلغرافي مع ليونا كاسياني، وقام هو نفسه بالعمل على جهاز الارسال كما لم يفعل منذ سنواته كعامل تلغراف . وعلم ان اميركا فيكونيا، التي وقعت ضحية احباط قاتل لرسوبها في الامتحانات النهائية، شربت قنينة لودانوم سرقتها من مستوصف المدرسة . كان فلورينتينو اريثا يعلم في اعماق روحه ان ذلك الخبر غير مكتمل . ولكن لا : فاميركا فيكونيا لم تترك اية ملاحظة تتيح القاء مسؤولية قرارها على أحد . كان أفراد عائلتها قد وصلوا من بويرتو بادري، بعد ان أعلمتهم ليونا كاسياني بالأمر، وسيتم الدفن في الخامسة مساء . تنفس فلورينتينو اريثا الصعداء . فالشيء الوحيد الذي يستطيع عمله كي يستمر في الحياة هو ألا يسمح لنفسه بالعذاب في تلك الذكرى . محا الأمر من ذاكرته، رغم انه سيشعر به ينبعث على نحو مفاجىء بين الحين والآخر في سنوات حياته الباقية، دون أي داع، وكأنه وخزة عابرة في جرح قديم مندمل .

كانت الأيام التالية حارة لا تطاق . وأصبح النهر عكراً وأخذ يضيق شيئاً فشيئاً، وبدلاً من الأشجار الضخمة المتشابكة التي أذهلت فلورينتينو اريثا في رحلته الأولى، كانت هناك بطاح كلسية، وبقايا غابات التهمتها مراجل السفن، وانقاض قرى مهجورة لرحمة الله، ما زالت شوارعها غارقة في ازمنة الجفاف القاسية . ولم تكن توقظهم في الليل اغنيات عرائس الماء التي تغنيها الأطم على الضفاف، وانما روائح النتانة المنبعثة من الجثث التي تمر طافية صوب البحر . لم تكن ثمة حروب ولا اوبئة، لكن الجثث المنتفخة ما زالت تمر طافية . وقد كان القبطان متواضعاً لمرة واحدة : «لدينا اوامر بان نقول للمسافرين بانها جثث غرقى» . وبدلاً من رطانة الببغاوات وصخب القرود اللامرئية التي كانت تفاقم من احتدام حر الظهيرة في أزمنة اخرى، لم يبق سوى صمت الأرض الخراب .

كانت أماكن التحطيب المتبقية قليلة جداً، ومتباعدة أحدها عن الآخر، مما ابقى وفاء الجديدة بلا وقود بعد أربعة أيام من بدء الرحلة . ورست لمدة اسبوع تقريباً، إلى ان توغل أفراد الطاقم في المستنقعات الرمادية بحثاً عن آخر الاشجار المبعثرة . لم تكن هنالك أشجار اخرى : فالحطابون هجروا عملهم هرباً من قسوة ملاكي الاراضي، وهرباً من الكوليرا اللامرئية، وهرباً من الحروب الخفية التي تحاول الحكومات التستر عليها بمراسيم تشغل الناس عنها . واثناء ذلك، نظم المسافرون الضجرون مسابقات في السباحة، وحملات صيد، كانوا يعودون منها بعظاءات ضخمة حية يشقون صدورها ويعيدون خياطتها ثانية بابر تنجيد

بعد ان يستخرجوا منها عناقيد البيض البراقة الطرية، التي يعلقونها في سلاسل لتجف على حواف السفينة . واقتفت عاهرات القرى المجاورة البائسات أثر حملات الصيد، فنصبن خياماً مرتجلة عند ضفة النهر، وجئن بالموسيقى والخمر، وأقمن مهرجاناً مقابل السفينة المتوقفة .

قبل ان يصبح رئيساً لشركة الكاريبي النهرية بوقت طويل، كان فلورينتينو اريثا يتلقى تقارير مفزعة عن حالة النهر، لكنه لم يكن ليهتم بقراءتها . وكان يطمئن شركاءه : «لا تقلقوا، فحين ينتهي الحطب ستكون قد بنيت سفن تعمل بالبترول» . ولم يكلف نفسه يوماً مشقة التفكير بالأمر، لانه كان مبهوراً بهوى فيرمينا داثا، وحين وعى الحقيقة كان الوقت قد فات ولم يعد بامكانه عمل شيء، اللهم إلا شق نهر جديد . في الليل وحتى في مواسم ارتفاع منسوب الماء، كان لابد من ربط السفن للنوم، وحينئذ يصبح مجرد كون المرء حياً أمراً لا يطاق . فيغادر معظم المسافرين، والاوربيين منهم بشكل خاص، عفونة القمرات ويقضون الليل سائرين على سطح السفينة، وهم يهشون جميع أنواع الهوام بالمناشف ذاتها التي يمسحون بها عرقهم المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بلسع الحشرات . لقد كتب رحالة انكليزي في اوائل القرن التاسع عشر، مشيراً إلى الرحلة التي كانت تتم في الزوارق أولاً ثم على متن البغال، والتي كانت تدوم حتى خمسين يوماً، يقول : «انها من أسوأ الأسفار التي يمكن لانسان ان يقوم بها واكثرها مشقة» . ولكن هذا التقدير لم يعد صحيحاً خلال ثمانين السنة الأولى من الملاحة البخارية، ثم عاد ليصبح كذلك وإلى الأبد، حين أكلت التماسيح آخر الفراشات، وانقرضت الأطم الامومية، واختفت الببغاوات، والقرود، والقرى : وانتهى كل شيء .

كان القبطان يقول ضاحكاً :

ـ لا وجود لأي مشكلة، فخلال بضع سنوات سنذرع مجرى النهر الجاف في سيارات فاخرة .

احتمت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا خلال الايام الثلاثة الأولى في كنف الشرفة المغلقة ذات الجو الربيعي، ولكن جهاز التبريد بدأ يتوقف حين جرى تقنين الحطب، فتحولت القمرة الرئاسية إلى ما يشبه طنجرة الضغط . وكان الفضل في بقاء فيرمينا داثا على قيد الحياة خلال الليل يعود إلى الهواء النهري الذي يدخل من النوافذ المفتوحة، فيما هي تهش البعوض بالمنشفة، لان مضخة المبيد الحشري كانت بلا جدوى اثناء توقف السفينة . وأصبح ألم اذنها لا يطاق، لكنه توقف تماماً عند استيقاظها في صباح أحد الايام فجأة، كما يتوقف غناء زيز منفجر . ولكنها لم تدرك حتى حلول الليل انها فقدت السمع باذنها اليسرى، وذلك حين كلمها فلورينتينو اريثا من هذه الجهة، **فاضطرت لان تلتفت برأسها كي تسمع ما يقوله . لم**

تخبر أحداً بذلك، مؤمنة بان الأمر ليس سوى نقيصة اخرى لامناص منها من نقائص التقدم في السن.

لكن تأخر السفينة كان بالنسبة لهما محنة مباركة رغم كل شيء ولقد قرأ فلورينتينو اريثا ذلك يوماً: «ان الحب يصبح أعظم وأنبل في المحن». كانت رطوبة القمرة الرئاسية تغرقهما في سبات لا واقعي يصعب الحب فيه دون إسئلة. كانا يعيشان ساعات لا يمكن تخيلها وهما يمسكان أحدهما بيد الآخر اثناء جلوسهما على مقاعد الشرفة، يتبادلان قبلاً بطيئة، وينعمان بنشوة المداعبات دون عراقيل الغضب. وفي ليلة السبات الثالثة، انتظرته وقد هيأت زجاجة من خمر اليانسون، الذي كانت تشرب منه خفية مع عصبة ابنة خالها هيلديبراندا، ثم مع صديقات عالمها المستعار فيما بعد، حين تزوجت وصارت أماً. لقد كانت تحتاج لبعض النشوة كي لا تفكر في مصيرها بوعي تام، ولكن فلورينتينو اريثا ظن انها تريد بذلك الحصول على الشجاعة للاقدام على الخطوة الاخيرة، ومدفوعاً بهذا الوهم، تجرأ على التقدم برؤوس اصابعه لاستكشاف عنقها الذاوي، وصدرها المصفح بأسياخ معدنية وردفيها العظميين المتآكلين، وفخذي الغزالة الهرمة. وتقبلت ذلك منتشية، بعينين مغمضتين، ولكن دون ان ترتعش، فيما هي تدخن وتشرب رشفات متباعدة من الخمر. واخيراً حين نزلت المداعبات إلى بطنها وأصبحت كمية الخمر في قلبها كافية، قالت:

ـ اذا كنا سنمارس الحماقات، فلنفعل؛ على ان يكون ذلك كأناس طاعنين في السن.

قادته إلى المخدع، وراحت تتعرى دون خفر زائف تحت الانوار المضاءة. واستلقى فلورينتينو اريثا على ظهره فوق السرير، محاولاً استعادة السيطرة على نفسه، دون ان يدري ثانية ما الذي يفعله بجلد النمر الذي قتله. قالت له: «لاتنظر». فسألها لماذا دون ان يرفع نظره عن السقف الأملس.

فقالت:

ـ لانني لن أعجبك.

عندئذ نظر اليها، ورآها عارية حتى وسطها، تماماً كما تخيلها. كان كتفاها مجعدين وثدياها متهدلين، وأضلاعها مغطاة بجلد شاحب وبارد كجلد ضفدع. غطت صدرها ببلوزتها التي انتهت من خلعها، وأطفأت النور. حينئذ اعتدل في السرير وبدأ بخلع ملابسه في الظلام، قاذفا اياها بكل قطعة يخلعها من ثيابه، وكانت تعيد قذفه بها وهي غارقة في الضحك.

بقيا مستلقيين على ظهرهما لوقت طويل، وكان يزداد ذهولاً كلما فارقته النشوة، فيما هي هادئة، وشبه هامدة، لكنها كانت تدعو الله ألا يجعلها تنفجر بالضحك دون سبب، مثلما يحدث لها كلما فقدت السيطرة على نفسها بفعل خمر اليانسون. تحدثا لشغل الوقت. تكلما

عن نفسيهما، وعن حياتيهما المختلفتين، وعن المصادفة التي لا تصدق في كونهما عاريين داخل قمرة مظلمة في سفينة متوقفة، في الوقت الذي كان عليهما ان يفكرا بانه لم يبق لديهما متسع من الوقت إلا لانتظار الموت. لم تكن قد سمعت يوماً بانه كان على علاقة بامرأة، ولو بامرأة واحدة، في مدينة يشيع فيها كل شيء قبل حدوثه. قالت له ذلك عرضاً، فرد عليها مباشرة ودون أية ارتعاشة في صوته:

ـ لقد احتفظت بعذريتي من اجلك.

ما كانت ستصدق ذلك على أية حال، حتى ولو كان صحيحاً، لان رسائله الغرامية كانت مصوغة من عبارات كتلك التي لا تكمن قيمتها في معناها، وانما في قدرتها على الابهار. لكنها أعجبت بالشجاعة التي قال فيها ذلك. وتساءل فلورينتينو اريثا بدوره بغتة حول الأمر الذي ما كان يتجرأ على التفكير فيه: أي نوع من الحياة السرية مارست على هامش حياتها الزوجية. ولم يكن ليفاجأ بأي شيء، لانه كان يعلم ان النساء مثل الرجال في مغامراتهن السرية: يلجأن إلى الحيل ذاتها، والمكائد المباغتة ذاتها، والخيانات بلا وازع من ضمير ذاتها. ولكنه أحسن صنعاً بعدم توجيه السؤال اليها. ففي حقبة كانت علاقاتها بالكنيسة متردية إلى حد بعيد، سألها كاهن الاعتراف دون أي مبرر اذا ما كانت غير وفية لزوجها يوماً، فنهضت دون ان تجيب، ودون ان تنتهي، ودون ان تودع، ولم تعد منذ ذلك الحين للاعتراف سواء مع هذا الكاهن أو مع اي كاهن آخر. أما فطنة فلورينتينو اريثا فقد جاءت بمردود غير منتظر: مدت يدها في الظلام، وداعبت بطنه، وخاصرته، وعانته شبه المرداء، وقالت: «ان لك بشرة طفل رضيع». ثم قامت بخطوة اخيرة: بحثت عنه حيث لم يكن، وعادت تبحث دون أوهام، فوجدته أعزل.

قالت:

ـ انه ميت.

لقد كان يحدث له ذلك دوماً في المرة الأولى، معهن جميعاً، ودائماً إلى ان تعلم التعايش مع ذلك الوهم: في كل مرة عليه ان يتعلم من جديد، كما لو كانت المرة الأولى. أمسك يدها ووضعها على صدره، فأحست فيرمينا داثا عند سطح الجلد تقريباً بالقلب الهرم الذي لا يكل وهو يخفق بقوة، وسرعة وعدم انتظام قلب مراهق. فقال: «ان حباً فائضاً له من التأثير على القلب كما لقلة الحب». لكنه قال ذلك دون قناعة: كان خجلاً وغاضباً من نفسه، يتلهف إلى مبرر يتيح له اتهامها باخفاقه. وكانت تعرف ذلك، فأخذت تستفز الجسد الأعزل بمداعبات ساخرة، كقطة ناعمة تتلذذ بالقسوة، إلى ان فقد القدرة على احتمال مزيد من العذاب ومضى إلى قمرته، تابعت التفكير فيه حتى الفجر، مقتنعة اخيراً من حبها له،

ولكما كان الخمر يفارقها بموجات بطيئة، كان القلق يهاجمها بانه قد غضب منها ولن يعود أبداً.

لكنه عاد في اليوم ذاته، في الساعة الحادية عشرة غير المألوفة، وكان منتعشاً ومرمماً، ووقف يتعرى امامها بشيء من المباهاة. وابتهجت وهي تراه تحت الضوء الغامر كما تخيلته في الظلام: رجلاً بلا سن محدد، ذا بشرة قاتمة، ومشدودة كمظلة مفتوحة، دون أي شعر سوى بعض الزغب السبط تحت الابطين وفي العانة. سلاحه عامراً، وانتبهت إلى انه لا يُظهره مصادفة وانما هو يعرضه كنصب حربي ليبث الشجاعة في نفسه. لم يتح لها الفرصة لخلع قميص نومها الذي لبسته حين بدأ يهب نسيم الفجر وسبب لها تسرعه كمبتدىء ارتعاشة عطف، لكنها لم تزعجّها، اذ لم يكن من السهل عليها في حالات كتلك التمييز بين العطف والحب. ومع ذلك فقد أحست آخر الأمر بالخواء.

كانت المرة الأولى التي تمارس فيها الحب منذ اكثر من عشرين سنة، وقد مارسته مدفوعة بفضول التعرف إلى كنهه في سنها وبعد عطالة طويلة الأمد. لكنه لم يتح لها الوقت الكافي لتعرف ما اذا كان جسدها يحبه أيضاً. لقد كان سريعاً وحزيناً، وفكرت: «هانحن ذا قد افسدنا كل شيء الآن». لكنها كانت مخطئة: فرغم خيبة املهما، ورغم ندمه لبلادته وتأنيبها نفسها لجنون اليانسون، لم يفترقا عن بعضهما للحظة واحدة خلال الأيام التالية. ولم يغادرا القمرة إلا قليلاً لتناول الطعام. وكان القبطان ساماريتانو، الذي يكتشف بالغريزة أي سر مخبأ في سفينته، يبعث اليهما بالوردة البيضاء كل صباح، ويأمر بعزف موسيقى من زمنهما، ويعد لهما أصنافاً من الطعام بطريقة لا تخلو من مزاح، وذلك بان يضيف اليها مواد مهيجة. ولم يحاولا ممارسة الحب إلا بعد وقت طويل، حين جاءهما الالهام دون ان يسعيا في طلبه. لقد كانا يكتفيان بسعادة وجودهما معاً.

لم يفكرا بالخروج من القمرة لولا ان القبطان بعث اليهما يخبرهما بان السفينة ستصل بعد الغداء إلى ميناء لادورادا، الميناء الاخير، بعد احد عشر يوماً من السفر. ورأت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا من القمرة رابية البيوت المضاءة بشمس شاحبة، وظنا بانهما توصلا لمعرفة سبب تسمية البلدة بهذا الاسم، لكن الأمر ما لبث ان بدا لهما أقل وضوحاً حين أحسا بالحر الذي يلهث مثل مراجل السفينة، ورأيا اسفلت الشوارع وهو يفور. ثم ان السفينة لم تتوقف هناك، وانما رست عند الضفة المقابلة، حيث المحطة النهائية لقطار سانتافي.

غادرا مخبأهما فور نزول المسافرين إلى البر. وتنفست فيرمينا داثا هواء الخلاص الطيب في الصالون الخاوي، وراقب كلاهما من حافة السفينة الحشود الصاخبة التي كانت تبحث عن أمتعتها في عربات القطار الذي بدا أشبه بدمية. كان يمكن الاعتقاد بانهم قادمون من

اوروبا، وخصوصاً النساء اللواتي كن يرتدين المعاطف الشمالية وقبعات القرن الماضي التي كانت تشكل نقيضاً للقيظ الاغبر. وكانت بعض النسوة يزين شعورهن بازهار بطاطا ذابلة بفعل الحر. انهن قادمات من السهل الانديزي بعد رحلة في القطار عبر سهوب حالمة، ولم تسنح لهن الفرصة بعد لاستبدال ملابسهن بما يتلائم مع جو الكاريبي.

وسط صخب السوق، كان ثمة رجل عجوز يُخرج صيصاناً من جيوب معطفه الذي كمعطف متسول. لقد ظهر فجأة، شاقاً طريقه وسط الحشود بمعطف مرقع لا بد انه كان لشخص اكثر منه طولاً وبدانة. خلع قبعته ووضعها على الرصيف ليلقي بها نقوداً من يشاء الالقاء، وراح يُخرج من جيوبه حفنات من صيصان لينة وباهتة بدت وكأنها تتكاثر بين اصابعه. وبدا رصيف الميناء خلال لحظة وكأنه مفروش بالصيصان المرتعدة التي تزقزق في كل مكان، بين المسافرين المتعجلين الذين يدوسونها دون ان يشعروا بها. وفيما فيرمينا داثا مسحورة بالمشهد الرائع الذي بدا وكأنه يجري على شرفها، لانها الوحيدة التي كانت تراقبه، لم تنتبه متى بدأ المسافرون في رحلة العودة يصعدون الى السفينة. لقد انتهت حفلتها: اذ رأت بين القادمين عدداً كبيراً من الوجوه المعروفة، منهم بعض الاصدقاء الذين رافقوها في حدادها منذ وقت قريب، فسارعت إلى اللجوء مجدداً في القمرة. وجدها فلورينتينو اريثا مذعورة: كانت تفضل الموت على ان يكتشفها جماعتها وهي في رحلة متعة، ولما يمض على موت زوجها سوى هذا الوقت القليل. وقد تأثر فلورينتينو اريثا شديد التأثر لجزعها، مما جعله يعدها بالتفكير في وسيلة لحمايتها غير السجن في القمرة.

لقد خطرت له الفكرة فجأة اثناء تناولهم العشاء في صالة الطعام الخاصة. كان القبطان قلقاً لمشكلة يريد ان يناقشها منذ زمن طويل مع فلورينتينو اريثا، الذي كان يتجنب الخوض في هذا الحديث دوماً بذريعة عادية: «بامكان ليونا كاسياني تدبر هذه الامور خيراً مني». ولكنه استمع اليه هذه المرة. المسألة هي ان السفن تشحن البضائع في صعودها، ولكنها تعود فارغة في رحلة العودة، بينما يكاد يحدث العكس بالنسبة للمسافرين، وقال: «هذا مع افضلية البضائع، لان أجور شحنها اعلى اضافة إلى انها لا تأكل». كانت فيرمينا داثا تتناول العشاء بلا شهية، ضجرة من المناقشة الخافتة بين الرجلين حول ضرورة اقرار فروق في التعرفة. استمع فلورينتينو اريثا حتى النهاية، وحينئذ فقط وجه سؤالاً بدا للقبطان على انه فكرة الخلاص، اذ قال:

- ايمكننا، نظريا، القيام برحلة مباشرة بلا حمولة ولا مسافرين، ودون التوقف في أي ميناء، ودون أي شيء؟

وقال القبطان ان ذلك ممكن نظريا فقط، لان لدى ش. ك. م. ن. التزامات عمل يعرفها

فلورينتينو اريثا افضل من سواه، وهي ملتزمة بعقود لشحن البضائع والركاب والبريد وأشياء اخرى كثيرة لايمكن تجنب معظمها. والسبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة. لان السفينة ستعتبر حينئذ محجورة صحيا، وسترفع الراية الصفراء وتبحر في حالة طواريء. لقد اضطر القبطان ساماريتانو لعمل ذلك عدة مرات بسبب اصابات الكوليرا الكثيرة في قرى النهر، رغم ان السلطات الصحية كانت تجبر الاطباء فيما بعد على اصدار وثائق تثبت ان الحالة ليست الا ديزنطاريا عادية. ثم ان راية الوباء الصفراء رفعت كثيرا عبر تاريخ النهر للتهرب من الضرائب، أو للتخلص من مسافر غير مرغوب فيه، أو للحيولة دون عمليات التفتيش غير الملائمة. وجد فلورينتينو اريثا يد فيرمينا داثا تحت المائدة، وقال:

- حسناً. فلنفعل هذا.

فوجيء القبطان، ولكنه بغريزة الثعلب العجوز التي يتمتع بها، رأى كل شيء واضحا في الحال. فقال:

- أنا آمر في هذه السفينة، ولكنك تأمر علينا، فاذا كنت تتكلم بجد، اعطني الامر مكتوبا، وسننطلق الآن في الحال.

كان جديا بالطبع، ووقع فلورينتينو اريثا الامر. فالجميع يعلمون في نهاية المطاف ان الكوليرا لم تنته بعد، رغم احصائيات السلطات الصحية المتفائلة. أما بالنسبة للسفينة فلا وجود لاية مشكلة. تم تحويل البضائع القليلة لنقلها في سفينة اخرى، وقيل للمسافرين ان عطلا طرأ على المحركات، وانهم سينقلونهم في سفينة تابعة لشركة اخرى في الصباح. ولم يجد فلورينتينو اريثا ما يمنع من اقتراف هذه الامور في سبيل الحب، اذا كانت تقترف لاسباب كثيرة غير اخلاقية، وغير وقورة احيانا. والرجاء الوحيد الذي تقدم به القبطان هو التوقف في ميناء بويرتو ناريه، لاصطحاب من ترافقه في الرحلة: فقد كان له قلبه المخبأ أيضا.

وهكذا أبحرت وفاء الجديدة عند فجر اليوم التالي، بلا بضائع ولا مسافرين، فيها راية الكوليرا الصفراء تخفق طربا على صاريها الاكبر. وعند الظهر التقطوا من ميناء بويرتو ناريه امرأة أطول من القبطان وأضخم منه، ذات جمال فظيع، لاتنقصها سوى اللحية كي تتعاقد للعمل في سيرك. زينايدا ينفيس، لكن القبطان كان يدعوها ممسوستي: انها صديقة قديمة، اعتاد حملها من أحد الموانيء وتركها في ميناء اخر، وما ان صعدت الى السفينة حتى هبت ريح شديدة مواتية. وفي ذلك الحجر الكئيب، استعاد فلورينتينو اريثا الحنين لذكرى روسالبا وهو يرى قطار انفيغا دو يصعد بمشقة على الطريق القديم الذي كانت تسلكه البغال، وهطل وابل من المطر الامازوني، سيستمر طوال الرحلة تتخلله انقطاعات قصيرة. ولكن احدا لم

يهتم لذلك: اذ ان للحفلة العائمة سقفها الخاص. في تلك الليلة، وكمساهمة شخصية في الحفلة، نزلت فيرمينا داثا الى المطابخ، وسط تشجيع طاقم السفينة، وأعدت طبقا مبتكرا للجميع، عمده فلورينتينو اريثا باسم: باذنجان الحب.

كانوا يلعبون الورق خلال النهار، ويأكلون حتى التخمة، وينامون قيلولات غرانيتية تستنفد قواهم، وما ان تغيب الشمس حتى يطلقون للموسيقى ويشربون خمر اليانسون مع السلمون الى ما بعد الارتواء. لقد كانت رحلة سريعة، في السمينة الخفيفة والمياه الطيبة، التي تحسنت بالفياضانات الرافدة من الجبال، حيث هطل مطر غزير في ذلك الاسبوع كالمطر الذي هطل على طول مجرى النهر. وكانوا يطلقون لهم في بعض القرى مدافع الرحمة لافزاع الكوليرا، فيردون شاكرين بجؤار حزين. وكلما التقوا بسفينة تابعة لاية شركة نهرية، كانت تبادلهم اشارات المواساة. وفي بلدة ماغانغيه، حيث ولدت ناديا، حملوا حطبا لبقية الرحلة.

فزعت فيرمينا داثا حين بدأت تحس بصفارة السفينة تدوي في اذنها البليمة، ولكنها في اليوم الثاني من تناول خمر اليانسون، أصبحت تسمع جيدا بكلتا اذنيها. واكتشفت ان للازهار رائحة اقوى بكثير من رائحتها السابقة، وان العصافير تغرد في الصباح افضل بكثير من تغريدها السابق، وان الله خلق اطومة ووضعها عند ضفة تامالاميكي لتوقظها فقط. سمعها القبطان، فحرف السفينة عن مسارها، ورأوا اخيرا الام الضخمة وهي تُرضع صغيرها على ذراعيها. لم تنتبه فيرمينا كما لم ينتبه فلورينتينو كيف اندمجا معا الى هذا الحد: كانت تساعده في ارتداء سترته، وتستيقظ قبله لتنظف بالفرشاة اسنانه الاصطناعية التي يتركها في كأس الماء حين ينام، وحلت مشكلة النظارات، لان نظارته كانت تناسبها تماما للقراءة ورفو الجوارب. وعند استيقاظها في صباح أحد الايام، رأته في الظلمة يخيط زرا لقميصه، فسارعت لتفعل ذلك بنفسها، قبل ان يكرر العبارة الروتينية عن حاجته لزوجتين. والشيء الوحيد الذي طلبته هي منه كان ان يضع لها كأس حجامة لألم أصاب ظهرها.

ومن جهة اخرى، كان فلورينتينو اريثا يتحرق شوقاً للعزف على كمان الفرقة الموسيقية، وقد استطاع ان يعزف لها **فالس الربة المتوجة** بعد ان تدرب عليه في نصف نهار، وعزفه خلال ساعات وساعات، الى ان اوقفوه مكرها. وفي احدى الليالي، استيقظت فيرمينا داثا للمرة الاولى في حياتها مختنقة ببكاء لم يكن وليد غضب وانما بكاء حزن، لذكرى العجوزين اللذين ماتا بضربات مجداف صاحب القارب الذي كانا فيه. أما المطر المتواصل فلم يكن يؤثر فيها، وفكرت متأخرة بان باريس قد لاتكون كئيبة الى الحد الذي تصورته من قبل، وان سانتافي ليست مدينة جنازات كثيرة تجوب الشوارع فقط. ووسع من افاقها الحلم برحلات اخرى مع فلورينتينو اريثا في المستقبل: رحلات مجنونة، بلا صناديق كثيرة، وبلا التزامات اجتماعية:

أقاموا عشية الوصول حفلة كبيرة، وعلقوا اكاليل ورقية ومصابيح ملونة . كان المطر قد توقف عن الهطول عند المغيب . ورقص القبطان وزينايدا متلاصقين رقصة البولير والتي كانت تخلب القلوب في تلك السنوات . وتجرأ فلورينتينو اريثا، فاقترح على فيرمينا داثا ان يرقصا فالس الانسجام، لكنها رفضت. ومع ذلك، فقد أمضت الليل وهي تضبط الايقاع بحركة من رأسها وكعبي حذائها، ووصل بها الامر في بعض اللحظات الى الرقص وهي جالسة دون ان تنتبه الى ذلك، بينما القبطان يتيه مع ممنوسته في عتمة البولير و. شربت كثيرا من الخمر مما اضطرهم لمساعدتها في ارتقاء السلالم، واجتاحتها نوبة ضحك صاخب مترافقة مع دموع أثارت قلقهم جميعا . لكنها حين سيطرت على نفسها في سكون القمرة المعطرة، مارست مع فلورينتينو حبا هادئا وصحياً . . حب جدين ملوثين، سيستقر في ذاكرتها كأفضل ذكرى من تلك الرحلة الدسلية . ما عادا يشعران بنفسيهما كخطيبين حديثين، على خلاف ما كان يفترضه القبطان وزينايدا، ولا كعاشقين متأخرين . كانا يشعران وكأنهما قد اجتازا جلجلة الحياة الزوجية الصعبة، ووصلا دون لف ولا دوران الى جوهر الحب . كانا ينسابان بصمت كزوجين قديمين كوتهما الحياة، الى ما وراء خدع العاطفة، الى ماوراء حيل الاوهام القاسية وسراب خيبة الأمل: الى ماوراء الحب . لقد عاشا معا ما يكفي ليعرفا ان الحب هو ان نحب في أي وقت وفي أي مكان، وان الحب يكون اكثر زخما كلما كان أقرب الى الموت .

استيقظا في الساعة السادسة . كانت تعاني وجع رأس مضمخ باليانسون، وكان قلبها مذهولا لاحساسها بان الدكتور خوفينال اوربينو قد رجع، اكثر بدانة وشبابا مما كان عليه حين انزلق عن الشجرة، وانه يجلس بانتظارها على الكرسي الهزاز أمام باب البيت . ولكنها كانت صاحية بما يكفي لتدرك ان ذلك لم يكن بتأثير خمر اليانسون، وانما بفعل الوصول الوشيك . قالت:

ـ سيكون هذا الرجوع كانه الموت .

ـ فوجيء فلورينتينو اريثا، لانها عبرت بما قالته عن فكرة لم تتح له العيش منذ بدأت رحلة العودة . لم يكن بامكانه ولا بامكانها تصور نفسيهما يعيشان في بيت آخر سوى القمرة، أو يأكلان بطريقة غير طريقة الاكل في السفينة، أو يندمجان في حياة ستكون غريبة عليهما الى الابد . لقد كان ذلك كانه الموت حقا . ولم يستطع العودة الى النوم . بقي مستلقيا في السرير، ويداه متقاطعتين وراء رقبته . وفي لحظة معينة، وخزته ذكرى اميركا فيكونيا وجعلته يتلوى ألما، فلم يستطع تأجيل الحقيقة اكثر: حبس نفسه في الحمام وبكى ماشاء له البكاء، دون تسرع، الى ان جفت دمعته الاخيرة . وحينئذ فقط واتته الشجاعة ليعترف لنفسه كم أحبها .

عندما استيقظا وارتديا ملابسهما للنزول الى البر، كانت السفينة قد خلفت وراءها مجاري ومستنقعات القنال الاسباني القديم، وكانوا يبحرون وسط انقاض السفن وبقع الزيت الميت في الخليج . وكان يوم خميس مشمس يعلو قباب مدينة الفيريس المذهبة، لكن فيرمينا داثا التي كانت تنظر الى المدينة من الشرفة، لم تستطع احتمال عفونة امجادها، ولا غطرسة حصونها التي تنتهكها السحالي . . لقد كانت تشعر بالرعب من الحياة الواقعية . لم يشعر هو كما لم تشعر هي، دون ان يقول احدهما ذلك للآخر، بالرغبة في الاستسلام بمثل هذه السهولة .

وجدا القبطان في صالة الطعام، في حالة اضطراب لاتتفق مع عاداته المهذبة : كانت ذقنه غير حليقة، وعيناه محتقنتين بالأرق، وعلى جسده مازالت ملابس الليلة الماضية المضمخة بالعرق، وكانت كلماته المضطربة تخرج مختلطة بتجشؤات خمر اليانسون . أما زينايدا فكانت ما تزال نائمة . بدأوا بتناول الفطور صامتين، حين اقترب زورق يسير بالبترول تابع لسلطات الميناء الصحية وأمر السفينة بالتوقف .

ورد القبطان صارخا من فوق مركز القيادة على أسئلة الدورية المسلحة . كانوا يريدون معرفة نوع الوباء الذي يحملونه، وعدد المسافرين في السفينة، وعدد المرضى بينهم، وماهي احتمالات انتقال العدوى الى آخرين . ورد القبطان بان السفينة تحمل ثلاثة مسافرين فقط، وجميعهم مصابين بالكوليرا، ولكنهم معزولون بشكل صارم، وان احدا لم يتصل بهم، سواء من المسافرين الذين كانوا يصعدون الى السفينة في لادورادا او من رجال الطاقم . لكن قائد الدورية لم يطمئن، فأمرهم بالخروج من الميناء والانتظار في مستنقع لاس ميرثيدس حتى الثانية بعد الظهر، ريثما يجهزون لهم اجراءات الحجر الصحي على السفينة . اطلق القبطان فرقعة حوذي من فمه، وأمر عامل الدفة باشارة من يده للدوران والعودة الى المستنقعات .

سمع كل من فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا مادار من حديث وهما على المائدة، ولكن لم يبد على القبطان انه مهتم بالامر . تابع تناول طعامه بصمت، وكان تعكر المزاج يبدو حتى في خرقه لقوانين التمدن التي ترسخ سمعة قباطنة النهر العريقة . وخز برأس السكين البيضات الاربع المقلية، وحركها في الطبق مع شرائح من الموز الاخضر كان يدسها كاملة في فمه ويمضغها بلذة متوحشة . نظرت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا اليه دون كلام، وكانهما بانتظار الامتحان النهائي على مقعد مدرسي . لم يتبادلا اي كلمة خلال حواره مع الدورية الصحية، ولم تخطر لهما ادنى فكرة عما سيصيب حياتيهما، لكنهما كانا يعرفان ان القبطان يفكر من اجلهما: كان ذلك يبدو في نبض صدغيه .

وفيما هو يلتهم وجبة البيض، وصحن الموز الاخضر، وفنجان القهوة مع الحليب، خرجت السفينة ومراجلها مطفأة من الميناء، وشقت طريقها في المجاري المائية عبر مفارش الطحالب،

وبنباتات اللوتس الطافية ذات الازهار البنفسجية والاوراق الكبيرة التي لها شكل قلوب، وعادت الى المستنقعات. كان الماء براقا بفعل عالم الاسماك الطافية على جنوبها، ميتة بديناميت الصيادين، وكانت طيور الارض والماء تحوم فوقها مطلقة صرخات معدنية. ونفذت ريح الكاريبي من النوافذ محملة بصخب العصافير، فأحست فيرمينا داثا في دمائها خفقات حريتها القلقة. والى اليمين، كان مصب نهر مجدلينا العظيم المعكر والرصين يمتد حتى الجانب الاخر من الدنيا.

عندما لم يبق في الاطباق شيء يؤكل، مسح القبطان شفتيه بطرف شرشف الطاولة، وتكلم برطانة قوضت الى الابد سمعة حسن التحدث التي عرف بها قباطنة النهر. لم يتكلم عنها ولا عن أحد، وانما كان يحاول التوافق مع غضبه. والنتيجة التي وصل اليها بعد سلسلة من الشتائم البربرية، هي انه لايجد سبيلا للخروج من ورطة راية الكوليرا التي ادخلوا انفسهم فيها.

استمع اليه فلورينتينو اريثا دون ان يطرف له رمش. ثم نظر عبر النافذة الى دائرة ساعة اجهزة الملاحة، والى الافق الرائق، والى سماء كانون الاول التي لاتشوبها غيمة، والى المياه المواتية للابحار الى الابد، وقال:

ـ فلنتابع قدما، قدما، قدماً، ونرجع الى لادورادا ثانية. ارتعشت فيرمينا داثا، لانها تعرفت على الصوت القديم المضاء بنعمة الروح القدس، ونظرت الى القبطان: كان هو القدر. لكن القبطان لم يرها، لانه كان غارقا في قدرة فلورينتينو اريثا الرهيبة على الالهام.

وسأله:

ـ أتقول هذا جاداً؟

فقال فلورينتينو اريثا:

ـ منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جدية.

نظر القبطان الى فيرمينا داثا ورأى في رموشها البريق الاول لصقيع شتوي. ثم نظر الى فلورينتينو اريثا، بتماسكه الذي لايقهر، وحبه الراسخ، وأرعبه ارتيابه المتأخر بان الحياة، اكثر من الموت، هي التي بلا حدود.

سأل:

ـ والى متى تظن باننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والاياب الملعون؟

كان الجواب جاهزا لدى فلورينتينو اريثا منذ ثلاث وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر يوماً بلياليها. فقال:

ـ مدى الحياة.

